صفات المتقين
في
الكتاب المبين

بقلم
عبد العظيم بن بدوي

مكتبة التوعية الإسلامية
لإحياء التراث الإسلامي
ت : ٨٦٨٦٠٥

مكتبة الوعى الإسلامى
دسوق - شارع الفار
ت : ٥٦٤١٩٣

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م

الناشر

مكتبة التوعية الإسلامية
لإحياء التراث الإسلامي
١٤ ش سويلم من ش الهرم
الطالبية ت : ٨٦٨٦٠٥

مكتبة الوعى الإسلامى
دسوق - شارع الفار
ت : ٥٦٤١٩٣

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فأصل هذا الكتاب خُطَب ألقيتها في مسجد محمد بن مسلمة بالقويسمة/ عَمّان، في الفترة من (١٤٠٧/١٠/٩ هـ. الموافق: ١٩٨٧/٦/٥ م) إلى (١٤٠٨/٧/١ هـ. الموافق: ١٩٨٨/٢/١٩ م). وقد وقع في قلبي بعد الفراغ منها كتابتُها، رجاء أن ينفع الله بها مسموعة ومقروءة، ففرّغتها من الأشرطة التي كان يسجلها عليها بعض طلاب العلم، ثم هذّبتها، وعزوت الآيات إلى مواضعها في السور، والأحاديث إلى أصحابها من أهل السنن، وقد اجتهدت في اجتناب الأحاديث الضعيفة قدر الاستطاعة والله عز وجل أسأل أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعلني: (ممن دعا إلى الله، وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين).

كتبه

عبد العظيم بن بدوي

في يوم الخميس ١٤١١/١/٢٥ هـ

١٩٩٠/٨/١٦ م

التقوى وثمراتها العاجلة والآجلة

معشر المسلمين: يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ﴾(١). فتقوى الله تعالى هي وصيّة الله للأوّلين والآخرين، ولقد كان رسول الله ﷺ يوصي بها المسلمين عامة في المحافل الكبيرة والمجامع العظيمة. وذات يوم وعظهم موعظة بليغة، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقالوا: يا رسول الله، كأنّها موعظة مُوَدِّع، فأوصنا، فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبدٌ حبشيٌّ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عَضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة»(٢).

وكان ﷺ إذا أرسل جيشاً وأمَّر عليهم أميراً وصَّى الأميرَ في خاصة نفسه بتقوى الله، ثم وصّاه بمن معه من المسلمين خيراً(٣).

---

(١) النساء ١٣١.

(٢) أبو داود (١٢/٣٥٨/٤٥٨٣)، الترمذي (٤/١٤٩/٢٨١٦)، ابن ماجه (١/١٥/٤٢).

(٣) مسلم (٣/١٣٥٦/١٧٣١)، الترمذي (٢/٤٣١/١٤٢٩).

وكــذلــك كان ﷺ يوصي بهــا أكثـر من يطلب منـه الـوصية، وصّى بهـا معـاذَ بن جبل، ووصّى بها أبا ذر، كمـا روى التـرمـذي عن أبي ذرٍّ جنـدب بن جنـادة وأبي عبد الـرحمن معاذ بن جبـل رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قـال: «اتّق الله حيثمـا كنت، وأتبـع السيئـة الحسنـة تمحهـا، وخـالق النـاس بخلقٍ حسنٍ»[1].

ولقـد عمل السلف الصـالح رضـوان الله عليهم بـوصيـة الله ورسـولـه، وكـانوا يتـواصون بهـا فيما بينهم، يـوصي الأخ أخاه، والـوالدُ ولـدَه، والجـارُ جارَه.

معشر المسلمين: إنّ الله عزّ وجل قد أمر عبادَه بتقـواه في آياتٍ كثيـرة، وعلّق على التقوى خيراتٍ كثيرةً، عاجلة وآجلة.

فعلّق الله تعالى على التقوى حياةَ القلوب وتمييزَها بين الحقّ والباطل، كما علّق عليها تكفيرَ السيئاتِ ومغفـرةَ الذنـوب، قال تعـالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾[2] وقـال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[3].

كما جعل الله تبارك وتعالى التقـوى مجلبةً للرزق ومـطردةً للبلاء، فقـال تعـالى: ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب** ﴾[4].

كمـا بيّن الله سبحانـه أن التقوى سببٌ لقضـاءِ الحوائـج وتيسيرِ الأمـور،

(١) الترمذي (٢٠٥٣/٢٣٩/٣).
(٢) الأنفال ٢٩.
(٣) الحديد ٢٨.
(٤) الطلاق ٢، ٣.

فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أمرِهِ يُسْراً ﴾(١).

كما أن تقوى الله سببٌ للتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يتبَوَّأ مِنْهَا حَيْثُ يشاء، نُصِيبُ برَحْمَتِنَا مَنْ نشاءُ وَلَا نُضيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ولأَجْرُ الآخِرةِ خَيْرٌ للَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يتَّقُون ﴾(٢).

ولما آوى يوسفُ إليه أخاه، وجاءه إخوته يقولون ﴿ يَا أَيُّهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وأهلَنَا الضُّرُّ وجِئْنَا ببضاعَةٍ مُزجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إنَّ اللهَ يجزِي المُتَصَدِّقِينَ. قالَ هَلْ علمتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وأخِيهِ إذْ أنْتُم جاهِلُون. قَالُوْا أإنَّكَ لأَنْتَ يُوسُف قَالَ أَنَا يُوسُف وهَذَا أخِي قدمَنّ اللهُ عَلَيْنَا إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ويَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِين ﴾(٣).

وتقوى الله هي سببُ قبولِ الأعمال لدى الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿ واتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ ابنَي آدَمَ بالحَقِّ إذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فتُقُبِّلَ مِنْ أحَدِهِمَا ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ، قالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ ﴾(٤).

وتقوى الله هي سببُ دخول الجنة، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾(٥). وقال تعالى: ﴿ وسَارِعُوا إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم، وجنَّةٍ عَرضُها السمٰواتُ والأرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين ﴾(٦).

كما أن تقوى الله سبب للنجاة من المهالك في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ ويُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُم السوءُ ولَا هُمْ يَحزَنُون ﴾(٧). وقال تعالى: ﴿ وَإنْ مِنْكُم إلَّا وَارِدهَا كَانَ عَلى رَبِّكَ حتماً

(١) الطلاق ٤.
(٢) يوسف ٥٦، ٥٧.
(٣) يوسف ٨٨، ٨٩، ٩٠.
(٤) المائدة ٢٧.
(٥) مريم ٦٣.
(٦) آل عمران ١٣٣.
(٧) الزمر ٦١.

مَقْضِيّاً. ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾(١). والتقوى هي الدافعُ لكلّ خير، والحاملُ على كلّ عملٍ صالح، وهي المانع من كلّ شرّ، والحائلُ بين الإنسان وبين معصية الله تبارك وتعالى.

أما الدليل على أن التقوى تحملُ صاحبَها على طاعة الله وفعلِ كلِّ ما يرضاه فقد جاء في الحديث عن أبي عمرو جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنّا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاءه قوم عراةٌ، مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم بل كلهمَ من مضر، فتمعّر وجهُ رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذّن وأقام، ثم صلّى، ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾(٢). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾(٣). تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة. فجاء رجل من الأنصار بِصُرَّةٍ كادت كفُّه تعجز عنها بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كُومَيْن من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلّلُ كأنه مُذهبة. فقال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(٤).

وأما الدليل على أن التقوى إذا حلّت القلب حالت بين صاحبه وبين معصية الله: فهو أن التقوى تمنع من الزنا، ودليلُ ذلك أن مريم عليها

---

(١) مريم ٧١، ٧٢.
(٢) النساء ١.
(٣) الحشر ١٨.
(٤) مسلم (١٠١٧/٧٠٤/٢).

السلام لما تمثّل لها جبريلُ بشراً سوياً ﴿ قالت: إنّي أعُوذُ بالرَّحْمنِ مِنكَ إن كُنتَ تَقِيًّا ﴾[1] أي إن كنت ذا تقوى فاتركني وخلِّ بيني وبين نفسي، ولا تمسّني بسوء، فقد علمتْ عليها السلام أن الرجل التقيَّ إذا همّ بسوء ثم ذُكِّر بالله رجع عما همّ به خوفاً من الله، كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيطانِ تَذكَّروا فإذا هُم مُبصِرُون ﴾[2]، وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيتُ إلى غارٍ فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار. فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم، (فكان مما دعا به أحدهم): اللهم إنه كانت لي ابنة عمّ، وكنت أحبّها كأشدِّ ما يحبّ الرجال النساء، فأردتها على نفسها فامتنعت منّي، حتى ألَمَّت بها سَنَةٌ من السنين، فجاءتْني فأعطيتُها عشرين ومائة دينارٍ على أن تخلّي بيني وبين نفسها ففعلت، فلما قعدتُ بين رجليْها قالت: اتّقِ الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه، فانصرفتُ عنها وهي أحبّ الناس إليّ، وتركتُ الذهبَ الذي أعطيتُها، اللّهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرجْ عنّا ما نحن فيه. (فلما دعا الثلاثة): انفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[3].

كما أن التقوى تمنع الإنسانَ أن يبخسَ الناسَ حقوقَهم، أوْ أن يكتُمَ الأماناتِ التي يأتمنونه عليها، قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ، وَلْيَكتُب بَينَكُم كَاتِبٌ بالعَدْلِ، ولا يَأْبَ كَاتِبٌ أنْ يَكتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ، فَلْيكتُبْ، وَلْيُمْلِلِ الَّذي عَلَيهِ الحَقُّ، وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ولا يَبْخَسْ مِنهُ شَيئاً ﴾. ثم قال ربنا بعد ذلك ﴿ فإنْ أَمِنَ بَعضُكُم بَعْضاً فَليؤدِّ الَّذي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وليتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ﴾[4].

---

(١) مريم ١٨.
(٢) الأعراف ٢٠١.
(٣) البخاري (٣٤٦٥/٥٠٥/٦)، مسلم (٢٧٤٣/٢٠٩٩/٤).
(٤) البقرة ٢٨٢، ٢٨٣.

وكذلك التقوى تحول بين الإنسان وبين سفك الدماء وإزهاق الأرواح البريئة بغير حق، قال تعالى: ﴿ واتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ ابْنَي آدَمَ بِالْحَقِّ إذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ من أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّل مِن الآخَرِ، قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِين. لَئِنْ بَسَطْتَ إِليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيكَ لأَقْتُلَكَ إنّي أَخَافُ اللهَ ربّ العَالَمين. إنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِن أَصْحَابِ النَّارِ، وذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِين. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِين ﴾[1].

فتقوى الله التي حلّت قلبَ هابيل حالتْ بينه وبين أن يسفك دم أخيه، ولما خلا قلبُ قابيل من تقوى الله (فطوّعت له نفسُه قتْل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين).

معشر المسلمين:

بعد هذا التفصيل نستطيع القول بأن الله تعالى خلق الخلق ليتقوه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدون ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم وَالَّذِينَ مِنْ قَبلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾[3].

فالغاية من خلق الخلق عبادة الله، والغاية من العبادة التقوى، فإذا جمعنا بين الغايتين استطعنا أن نقول: ما خلقَ اللهُ الخلقَ إلا ليتقوه.

ومن هنا وجب على كل مسلم أن يبادر إلى تحصيل التقوى ليكون من ورثة جنة النعيم.

معشر المسلمين: إذا كانت هذه هي آثار التقوى ومنافعها العاجلة والآجلة، فما هي التقوى؟

---

(١) المائدة ٢٧ ـ ٣٠

(٢) الذاريات ٥٦.

(٣) البقرة ٢١.

الجواب: أن أصل التقوى أن تجعل بينك وبين ما تخافه وتحذره شيئاً يقيك شرّه، فالرجل منا يتقي الحرَّ والبردَ بأجهزة التكييف الباردة صيفاً والحارّة شتاءً، كما أنّنا نتقي الجوع بالطعام، والظمأ بالشراب، ونحو ذلك.

فإذا علمنا ذلك نقول: على المسلم أن يجعل بينه وبين ما يخافه ويحذره من غضب الله وعقابه شيئاً يقيه شرّ عذاب الله، وهذا الشيء هو تقوى الله المتمثلة في القيام بالواجبات وترك المنكرات، وهذا أحسن ما قيل في تعريف التقوى، فمن حصّل التقوى فقد حصّل السعادة كلّها، ولذا قال القائل:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكنّ التقيَّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

صفات المتقين

الصفة الأولى: الإيمان بالغيب

معشر المسلمين:

قلنا إن التقوى هي الغاية من خلق الخلق، لقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدون** ﴾[1]. وقوله: ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون** ﴾[2] فالآية الأولى بيّنت الغايةَ من خلق الخلق، وهي العبادة، والآية الثانية بيّنت الغاية من العبادة، وهي التقوى، وبهذا نستطيع أن نقول: ما خلق الله الخلقَ إلا ليتقوه.

وإذِ الأمر كذلك، وجب علينا أن نفصّل القول لبيان صفات المتقين عسانا أن نجتهد في تحصيلها فنكون من المتقين، ونحشرَ معهم ﴿**في جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ**﴾[3].

معشر المسلمين: إن الله سبحانه قد وصف المتقين في كتابه المبين بصفات كثيرة في أكثر من سورة: في سورة البقرة يقول ربنا سبحانه وتعالى في مطلعها: ﴿ **الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِلمُتَّقين. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ، ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون، والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ**

---

(١) الذاريات ٥٦.

(٢) البقرة ٢١.

(٣) القمر: ٥٤، ٥٥.

﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْـزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هم يُوقِنُون. أُوْلئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِم، وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحون﴾[1].

فـذكر الله تعـالى أن هذا الكتـاب وهو القـرآن الكريم لا ريب فيـه، أي لا شـك أنـه تنـزيـل من حكيم حميـد، نـزل بـه الـروح الأمين، على قلب محمد ﷺ، فقرأه عليـه كما سمعـه من الله عزّ وجـل، وقرأه محمـد ﷺ على أمّتِه، كما سمعـه من جبريـل، ثم تناقلتـه الأمة بـالتواتـر جيلاً عن جيـل، وقد تكفّـل الله بحفـظه، كمـا قـال: ﴿إِنَّـا نَحْنُ نَـزَّلْنَـا الـذِكْـرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَافِظُون﴾[2]. فلا تستطيع يدٌ أن تعمل فيه بالزيـادة أو النقصان، ولا يـرتاب في ذلك إلاّ مرتاب، ولا يشك فيه إلا كل أفاك أثيم.

ثم أخبـر سبحانـه أن هذا الكتـاب هدًى، كله هـدًى، الهدَى حقيقتـه، والهدَى طبيعته، والهدى كامنٌ في كـلّ آية من آيـاته. ولكنّـه ليس كذلـك لكلّ النـاس، وإنما لصنفٍ معيَّن منهم وهم عبـاد الله المتقـون. ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيه، هُدَىً لِلْمُتقين﴾. ثم وصف الله المتقين بصفات أُولاها: الإيمان بالغيب:

والغيب كـلُّ ما غـاب عنا، كـل ما غـاب عنك فهـو غيب، والإنسـان لا يؤمن بـالغيب إلا إذا قامت البـراهين والشواهـد على وجود هـذا الغيب. فأنت مثـلاً إذا سمعت من المذيـاع أن فلانـاً من الحكام أو الـرؤسـاء زار بلد كـذا، آمنت بـه وصدقت، وحصـل عندك يقين بـأن الحاكم الفـلانيَّ قد قـام بـزيـارة لهـذا البلد، وأنت لم تـر هــذا الحـاكم حين زار هــذا البلد، ولا رأيتـه حين دخـل ولا حين خرج، ولكن لمـا نُقِلَ إليـك الخبـرُ عن طـريقٍ لا يتـطرق إليـه الشـك آمنتَ بهذا الغيب الـذي سمعت به ولم تـره وأنت كذلـك حين تدخـل بيتك فتجد شيئاً في غير محلِّه، أو ترى شيئاً جديداً، تُبادرُ بالسؤال: من نقل هذا من موضعه؟ ومن أحضر هـذا الشيء الجديـد؟ لأنك تعلم علمَ اليقين أنّ

---

(١) البقرة ١ ـ ٥.
(٢) الحجر ٩.

هـذا الشيء لا يمكن أن ينتقل من مكـان إلى آخرَ بنفسـه، كمـا تعلم أن هـذا الشيءَ الجـديدَ لا يمكن أن يـدخلَ البيتَ بنفسـه، بـل لا بـدّ أن يكـون وراءه إنسانٌ أتى به ووضعه في هذا المكان.

وإذِ الأمر كذلك فإننا نقول: إن المقصـود من الإيمان بالغيب ـ الذي هو من أخصّ صفـات المتقين ـ الإيمانُ بـالله، وملائكتـه، وكتبـه ورسله، واليـوم الآخر، وما فيه من بعثٍ، وحشرٍ، ونشرٍ، وحسابٍ، وجزاءٍ وجنةٍ، ونارٍ.

وكـلّ هذه الغيبيـات ما رأينـاها، ولا أدركنـاها بحـواسّنـا، ولكنـه قـامت البراهينُ والشواهـدُ، والأدلةُ الثـابتة عليهـا، فآمنَّـا بها وصـدّقنا، ولا ينكـر هذه الغيبيات إلا مكابرٌ للعقل جاحدٌ للحق.

معشـر الأخـوة: إنَّ أصـلَ الإيمـان بالغيب هو الإيمان بالله تبارك وتعالى، والله لم يُـرَ، ولَنْ يُرَى في الـدنيا، لن يـرى إنسانٌ اللهَ في الـدنيا، مهمـا كـان هـذا الإنسانُ نبيـاً، أو رسولاً، أو ملكـاً، أو وليـاً، أو عبـداً صالحـاً. قال الله تعـالى عن نفسه: ﴿ **لَا تُـدْرِكُـهُ الْأَبْصَـارُ وَهُـوَ يُـدرِكُ الْأَبْصَـارَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الخَبير**﴾[1]. ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَنْ تَرَانِي، وَلَكِنْ انْظُر إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً، فَلَمَّا أَفَاقَ قال سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَولُ الْمُؤْمِنِين**﴾[2]

ونبيّنا محمد ﷺ لما عُرِجَ به إلى السموات العلا، إلى ما فـوقها ﴿ **عِنْـدَ سِـدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ. عِنْدَهـا جَنَّـةُ المَـأْوَى** ﴾[3] إلى مـا فـوق ذلـك، حيث سمـع صـريف الأقلام، خـاطبه الـرحمنُ سبحانـه من وراء حجاب، وكلّمـه من غير

(١) الأنعام ١٠٣.
(٢) الأعراف ١٤٣.
(٣) النجم ١٤، ١٥.

أن يظهر لـه، ولم ير نبيُّنـا ﷺ ربَّه عـزّ وجل، ولـذا لما أصبـح قيل لـه «أرأيت ربَّـك؟ فقال ﷺ «نورٌ أنّى أراه»[1]. أي أن الرب عـزّ وجل احتجب عن عبـاده بحجب من نـور، لـو كُشِفَتْ تلك الحجبُ لأحـرقتْ سُبُحـاتُ وجهِـه مـا بين السموات والأرض[2]، فـرؤيـة الله في الـدنيـا لم تقع ، أمـا في الآخـرة فـإن المؤمنين سيـرونه بعـد أن يتبـوأوا منـازلهم في الجنـة، قـال تعـالى: ﴿ وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ نَـاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَـا نَاظِـرَة ﴾[3]. وقال ﷺ : «إنكم ستـرون ربكم عيانـاً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته»[4].

وإذا كـان الله لا يُـرى في الـدنيـا؟ فكيف آمن بـه المؤمنـون؟ إننـا آمنـا بـربِّ العالمين لأننـا رأينا وشـاهدنـا من الآيات والبـراهين القاطعـات أن هناك وراء هذا الكون خـالقاً مـدبراً، هـو الذي خلق هـذا الكون، وهـو الذي يُـدبّر أمـرَه، وينفذُ فيـه مشيئتَه، فمـا شاء كـان وإن لم يشأ العبـاد، ومـا لم يشـأ لم يكن وإن شـاء العبـاد ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّـذي خَلَقَ السَّمٰـوَاتِ والأرضَ فِي سِتَّـةِ أَيَّام ٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَىٰ العَرْشِ يُدبِّرُ الأَمْرَ ﴾[5].

والتفكُّـر في الكون أمـرٌ رغَّب فيـه الشـرعُ وحثّ عليـه النـاسَ جميعـاً، مؤمنهم وكافرَهم، أما المؤمنون فهم مـطالبون بـالتفكر في الكـون وتأمـل آيات الله فيه ليزدادوا إيماناً مـع إيمانهم. وأمـا الكافـرون فهم مطالبـون بالتفكـر في الكون لأنه ما من كافر يتأمل ما حـوله بقلب سليم بـريءٍ من الحميّة والعصبيّـة إلا اضـطرّ إلى النـطق بكلمـة الإيمـان، لأن لله تعـالى في كـل شيء آيـة تدل على أنه الواحد.

﴿ وَمِنْ آيَـاتِهِ اللَّيْـلُ والنَّهَـارُ والشَّمْسُ والقَمَـرُ ﴾[6] ﴿ وَآيَـةٌ لَهُمُ اللَّيْـلُ

(١) مسلم (١٧٨/١٦١/١)، الترمذي (٣٣٣٦/٧٠/٥).
(٢) هذا معنى حديث رواه مسلم (١٧٩/١٦١/١). (٣) القيامة ٢٢، ٢٣.
(٤) البخـاري (٥٥٤/٣٣/٢)، مسلم (٦٣٣/٤٣٩/١)، أبـو داود (٤٧٠٣/٥١/١٣)، الترمذي (٢٦٧٥/٩٢/٤)، ابن ماجه (١٧٧/ ٦٣/١).
(٥) يونس ٣.
(٦) فصلت ٣٧.

نَسلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها، ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ. والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ. لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَنْ تُدرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهارِ، وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسبَحُونَ ﴾[1].

ولقد نظر أناس إلى الشمس والقمر فملكت عظمتهما قلوبَهم، فخرّوا لهما ساجدين واتخذوهما آلهةً من دون الله ربِّ العالمين، وفي ذلك يقول ربنا: ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْس وَلاَ لِلْقَمَرِ، وَاسْجُدُوا للهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[2] إن كانت هذه المخلوقات عظيمة فإن عظمتَها تدلُّ على عظمةِ خالقِها، فليسجدوا له إن كانوا يعقلون، فإن الذي خلق هذه المخلوقات أولى بالسجود له من دونها.

معشر المسلمين: إن الأثرَ يدل على المسير، وإن البعرَ يدل على البعير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمْوَاج، وشمسٌ وقمرٌ، وليلٌ ونهار يتعاقبان، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير. ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيرُ صِنْوانٍ يُسقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعضَهَا عَلَىٰ بَعضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لأَيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعقِلُونَ ﴾[3]. ﴿وفي الأَرْضِ ءَاياتٌ لِّلمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[4] وفي الأرض آيات تدل على وجود اللطيف الخبير، وفي أنفسكم أيضاً آيات تدل على الإله الحق المبين، أفلا تبصرون، أفعميان أنتم فلا تبصرون ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[5].

---

(١) يس ٣٧ - ٤٠.
(٢) فصلت ٣٧.
(٣) الرعد ٤.
(٤) الذاريات ٢٠، ٢١.
(٥) الحج ٤٦.

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَينِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ ﴾[1] ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تمنُون؟ أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُون ﴾[2] الرجل يتصل بأهله على النحو المعروف فيقضي وطره، ويشبع غريزته، فتصبُّ هذه النطفة في رحم المرأة فتلتقي ببويضة المرأة، فيحدث اللقاح الذي هو سبب هذا الإنسان. ما دخلك أنت أيها الإنسان في هذا اللقاح؟ كيف تشرف عليه؟ كيف تدبر شأنه؟ هل تراه؟ هل تستطيع أن تقف على تقلباته التي يتنقل بها من طور إلى طور؟ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا المُضغَةَ عِظَاماً، فَكَسَونَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلقاً آخَرَ، فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾[3]. تبارك الله! ما أحسن خلقه! الأصل واحد وهو ماء الرجل، ومنه يخرج الذكر والأنثى. الأصل هو تلك النطفة القذرة، وهذا الماء المهين، ومنه يتكون هذا الإنسان في أحسن تقويم، جسد جميل، ذو عينين، وأذنين، ويدين، ورجلين.. و.. و... فمن الذي خلق ﴿ أَم خُلِقُوا مِن غَيرِ شَيءٍ؟ أَم هُمُ الخالِقُونَ؟ ﴾[4]؟ ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

معشر المسلمين: يجب على كل إنسان منّا أن يتفكر في مخلوقات الله، في السماء، وفي الأرض ويجب على كل منّا أن يتفكر في نفسه، وأن يتأمل نفسه، وأن يتذكر قول الله: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَم يَكُنْ شَيئاً مَذْكُوراً ﴾[5] فمن الذي أخرجك من العدم إلى الحياة؟ إنه الله، فقل آمنت بالله ثم استقم.

---

(١) الطارق ٥ - ٧.
(٢) الواقعة ٥٨، ٥٩.
(٣) المؤمنون ١٢ - ١٤.
(٤) الطور ٣٥.
(٥) الإنسان ١.

الصفة الثانية: إقامة الصلاة

معشر المسلمين:

إنّ الناظرَ في أحوال المسلمين اليومَ يجد العجبَ العجابَ من موقفهم من الصلاة: فترى مسلماً لا يعرف جمعةً ولا جماعةً، وترى آخرَ لا يصلّي إلا الجمعة من كل أسبوع، وترى الثالث لا يصلي إلا العيدَيْن في كل سنة.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على غربة هذا الدين بين أهله والمنتسبين إليه، وإنما يدلّ على أن المسلمين قد بعدوا بعداً شديداً عن دينهم الذي لا سعادة لهم في الدنيا والآخرة إلا بالتمسك به والعمل بكل ما جاء فيه.

لذا فإننا نحبّ اليوم أن نذكِّرَ المسلمين بمنزلةِ الصلاة من الدين، ليزدادَ المحافظون على صلواتهم محافظةً عليها، ويُقلِعَ المقصّرون والمضيّعون للصلاةِ عن تقصيرهم فيها وتضييعهم لها. فنقول وبالله التوفيق:

إن للصلاة في الإسلام منزلةً عظيمة لا تدانيها منزلةُ أية عبادة أخرى، فالصلاة هي عمود الدين، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»[1]. وفي حديث

---

(١) الترمذي (٢٧٤٩/١٢٤/٤)، ابن ماجه (٣٩٧٣/١٣١٤/٢).

آخـر يجعلها ﷺ الـركن الثـاني من أركـان الإسـلام بعـد الشهـادتين، فيقـول ﷺ : «بني الإسلام على خمس: شهـادة أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»(١).

وكلنا يعلم أن الصلوات إنما فـرضت على النبي ﷺ وأمتِه ليلةَ المعـراج فـوقَ السموات العـلا، فوق سـدرة المنتهى، حيث خـاطب اللهُ نبيَّـه من وراء حجـاب، وفـرض عليـه وعلى أمتـه خمسين صـلاةً في اليـوم والليلة، وسمـع رسولُ الله ﷺ لربه وأطاع، وقَبِلَ ما كُلِّفَ بـه هو وأمتُـه، فلما نـزل مرّ بمـوسى عليـه السلام في السمـاء السادسـة فسـألـه مـوسى: بم جئت من عنـد ربّـك؟ قـال: فرض عليّ وعلى أمتي خمسين صـلاة. فقال مـوسى: ارجع إلى ربّـك وسَلْهُ التخفيف، فـإن أُمَّتَـك لا تـطيق ذلـك. فـرجـع ﷺ إلى ربّـه وسـألـه التخفيف، فحطَّ عنه عشراً، ثم نـزل فمر بمـوسى فقال ارجـع إلى ربّك وسله التخفيف. فما زال ﷺ يصعد إلى ربّـه يسألـه التخفيف ثم ينزل فيمـر بموسى فيقول ارجع إلى ربك فسله التخفيف، ما زال هكـذا حتى جعلها الله سبحـانه خمسـاً بدلاً من خمسين، فلمـا نـزل ﷺ سمـع الـربَّ عـزّ وجـل يقـول: يـا محمـد: لا يبدل القـول لـديّ، هي خمسٌ في العمـل، وخمسـون في الأجـر والثواب(٢).

وهكذا فرضت الصـلاة من الله عز وجـل مشافهـةً ومخاطبـةً لرسـول الله من وراء حجاب، ولقد ظلَّ رسول الله ﷺ طـوال حياتـه ووجودِه بين المسلمين يحثُّهم على الصلوات ويرغّبهم فيها، ويبيّن فضلَها، ويحذّرهم من إضـاعتها، حتى كـان آخرَ مـا وصى به في مـرض مـوتـه: «الصـلاةَ، الصـلاةَ ومـا ملكت أيمانكم»(٣).

---

(١) مسلم (١/٤٥/١٦)، البخـاري (١/٤٩/٨)، الترمـذي (٤/١١٩/٢٧٣٦)، النسـائي (٨/١٠٧).

(٢) البخاري (٧/٢٠١/٣٨٨٧)، مسلم (١/١٤٥/٢٥٩)، النسائي (١/٢١٧).

(٣) ابن ماجه (١/٥١٩/١٦٢٥).

ولقد أمر اللهُ سبحانه بالمحافظة على الصلاة فقال: ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الوُسْطَىٰ وقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أو رُكْبَاناً** ﴾[1].

فالصلاة واجبة على كل مسلم بالغ عاقل، صحيحاً كان أو مريضاً، مقيماً كان أو مسافراً، آمناً كان أو خائفاً، لا تسقط الصلاةُ عن المسلم أبداً إذا بلغ الحُلُمَ إلا أن يموت أو يفقد العقلَ الذي هو مناط التكليف، لا كما يزعم أهل الضلال والإلحاد من أن العبد إذا بلغ درجة اليقين سقط عنه التكليف، محتجين بقول الله تعالى: ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيكَ اليقينُ** ﴾[2] فزعموا أن غايةَ العبادة بلوغُ اليقين، فمن بلغه سقط عنه التكليف فليفعل ما يشاء، وهُمْ بذلك يدّعون أنهم أفضل من الأنبياء، فمن المعلوم أن النبي ﷺ ـ وهو أعلم الناس بربه، وأتقاهم له ـ من المعلوم أنه ﷺ ما زال يعبد ربَّه بالصلاةِ وغيرها حتى أتاه الموت، فهل كان رسول الله ﷺ لم يبلغ الدرجة المزعومة عند القوم، ولذا لم يسقط عنه التكليف قبل الموت؟ ﴿ **سُبحَانَكَ هَـذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾[3]، ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إن يَقُولُونَ إلاَّ كَذِباً** ﴾[4] ﴿ **وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِم** ﴾[5].

أما نحن المسلمين فنقول: إن الموت هو اليقين، وهذا واضح من قول الله تعالى حكايةً عن أهل النار حين سألهم أهلُ الجنة ﴿ **مَا سَلَكَكُم فِي سَقَرَ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ. وَلَم نَكُ نُطعِمُ المِسكِينَ. وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ. وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيومِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا اليَقِينُ** ﴾[6]. فهل يقول قائل إن أهل النار بلغوا درجة اليقين التي هي من درجات الدين عند

---

(١) البقرة ٢٣٨، ٢٣٩.
(٢) الحجر ٩٩.
(٣) النور ١٦.
(٤) الكهف ٥.
(٥) التوبة ٧٤.
(٦) المدثر ٤٢ ـ ٤٧.

القوم؟! ﴿ فَمَا لِهَؤُلَاءِ القومِ لَا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾[١].

فالصلاةُ لا تسقط عن المسلم بحالٍ أبداً، بل عليه أن يصلّي حسب استطاعته، كما في الحديث عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كانت بي بواسير، فسألت رسول الله ﷺ عن الصلاة؟ فقال: صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[٢].

وأما إن كان المسلمون في حرب مع أعدائهم، فقد قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً ﴾ قال ابن عمر «مستقبلي القبلة وغير مستقبليها»[٣].

فإن أمكنهم أن يقيموا الجماعة فقد ذكر الله تعالى كيف يقيمونها فقال: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وليأخذوا حذرهم وَأَسْلِحَتَهُمْ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً، وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾[٤].

فيا معشر المسلمين: استجيبوا لربكم حيث أمركم بالمحافظة على الصلوات فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾[٥]. واعلموا أن الله مدح المحافظين على الصلاة ووعدهم

---

(١) النساء ٧٨.
(٢) البخاري (١١١٧/٥٨٧/٢)، أبو داود (٩٣٩/٢٣٣/٣)، الترمذي (٣٦٩/٢٣١/١)، ابن ماجه (١٢٢٣/٣٨٦/١).
(٣) الآية ٢٣٩ من البقرة والتفسير رواه: مالك (٤٤٢/١٢٦)، البخاري (٤٥٣٥/١٩٩/٨).
(٤) النساء ١٠٢.
(٥) البقرة ٢٣٨.

الفردوس الذي هو أعلى درجات الجنة، وسقفه عرش الرحمن، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ وعدّد صفاتٍ ختمها بما بدأها به فقال: ﴿وَالَّذِينَ هم عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

وكما مدح الله الذين هم على صلاتهم يحافظون فقد ذم الذين هم عن صلاتهم ساهون، فقال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْف أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾(٢). والغيّ: قيل إنه واد في جهنم.

وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾(٣)، إنهم لم يتركوا الصلاة بالكلية، إنهم يصلون ولكنهم ربما غفلوا عن الصلاة حتى يخرج وقتها، ومع هذا فقد توعدهم الله بالويل، فكيف بمن ضيعها، ولم يؤد منها شيئاً؟

وكما جعل الله المحافظة على الصلاة سبباً لدخول الجنة، كذلك أخبر أن ترك الصلاة سبب دخول النار، فقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة . إِلَّا أَصْحَابَ اليَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ المُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُم فِي سَقَرَ . قَالُوا لَم نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا اليَقِينُ ﴾. قال الله تعالى: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾(٤).

معشر المسلمين:

إذا كانت هذه هي منزلة الصلاة في الدين، فما حكم تاركها؟

جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «بين الرجل وبين الشرك

---

(١) المؤمنون ١ ـ ١١.
(٢) مريم ٥٩.
(٣) الماعون ٤، ٥.
(٤) المدثر ٣٨ ـ ٤٨.

والكفر ترك الصلاة»[١]. وقال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[٢].

حمل نفر من العلماء هذه الأحاديث على ظاهرها وقالوا: تارك الصلاة كافر، خارج عن الإسلام، إذا مات لا يغسل، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين. وممن ذهب إلى هذا الإمام أحمد رضي الله عنه، وابن حزم رحمه الله، وهو مروي عن نفر من أصحاب رسول الله ﷺ.

ولكن جمهور العلماء حملوا هذه الأحاديث على الكفر الأصغر، وقالوا: تارك الصلاة يسمى كافراً كما سماه رسول الله، ولكنه كفر لا يخرج من الملة، إذا كان معتقداً فرضيتها، مقراً بوجوبها، وشغلته الدنيا، وغلب عليه الكسل.

واستدلوا لما ذهبوا إليه بقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد بسنده من حديث عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد في اليوم والليلة، من حافظ عليهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»[٣].

قالوا: لما رد رسول الله ﷺ أمر من لم يحافظ على الصلاة إلى مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، دل ذلك على أنه وإن سمي كافراً إلا أنه لا يخرج من الملة لأنه لو كان كفره مخرجاً من الملة لم يرد أمره إلى المشيئة، لقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾[٤].

---

(١) مسلم (١/٨٨/٨٢)، أبو داود (١٢/٤٣٦/٤٦٥٣)، الترمذي (٤/١٢٥/٢٧٥١)، ابن ماجه (١/٣٤٢/١٠٧٨).

(٢) ابن ماجه (١/٣٤٢/١٠٧٩)، الترمذي (٤/١٢٥/٢٧٥٦)، النسائي (١/٢٣١).

(٣) أحمد (٢/٢٣٤/٨٢)، أبو داود (٢/٩٣/٤٢١)، ابن ماجه (١/٤٤٩/١٤٠١)، النسائي (١/٢٣٠).

(٤) النساء ٤٨.

وعلى كل حال فإذا كان المسلم المضيع للصلاة يسمى كافراً وإن كان كفره لا يخرجه من الملة أفلا يكفي تارك الصلاة هذا الزجر وهذا الوعيد، ألا يكفيه تشبيهه بالكافرين؟ أليس في ذلك عبرة وعظة لمضيعي الصلاة حتى يقلعوا عما هم عليه؟ **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾**(١)

معشر المسلمين: من الأمور التي يجب التنبيه عليها ونحن نتحدث عن الصلاة أنه يجب على كل مصلٍّ أن يسبغ الوضوء قبل الصلاة، وأن يحسن قراءته فيها، وأن يتم ركوعها وسجودها، ولا ينقرها نقر الديكة، فإن رسول الله ﷺ قد رأى رجلاً يصلي ويستعجل، ينقر السجود نقر الغراب، فقال ﷺ: «إن هذا لو مات على هذه الحال لمات على غير ملة محمد ﷺ»(٢). وقال ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، لا يتم ركوعها ولا سجودها»(٣).

وعلى كل مسلم أن يعلم أن الطمأنينة ركن مع كل ركن في الصلاة، فمن لم يطمئن في صلاته فلا صلاة له. ولذا كان رسول الله ﷺ يوماً جالساً في المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم، فرد رسول الله ﷺ السلام ثم قال له: ارجع فصل فإنك لم تصل. فرجع الرجل فصلى كصلاته الأولى، ثم جاء فسلم، فرد عليه وقال ارجع فصل فإنك لم تصل. حتى فعل ذلك ثلاث مرات، ثم قال الرجل: «والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا فعلمني. فقال ﷺ: إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»(٤).

---

(١) ق ٣٧.

(٢) البيهقي (٢/٨٩).

(٣) أحمد (٣/٢٦٨/٦٤٦).

(٤) البخاري (٢/٢٧٧/٧٩٣)، مسلم (١/٢٩٨/٣٩٧)، أبو داود (٣/٩٣/٨٤١)، =

ومما يجدر التنبيه عليه أيضاً الحرص على الجماعة، فإن رجالاً زهدوا في الجماعة وفي الأجر المترتب عليها، وقالوا: قال رسول الله ﷺ «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[1] فحسبنا درجة واحدة، قالوا هذا زاهدين في هذا الفضل العظيم، ظانين أنهم إذا تخلفوا عن الجماعة فقد فاتتهم الفضيلة فقط، وحتى نزيح هذه الشبهة ونزيل هذا الإشكال نقول:

إن شهود الجماعة فرض لازم على من ليس له عذر في التخلف عنها، لحديث الأعمى الذي قال يا رسول الله: ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته، فرخص له، فلما ولى دعاه فقال له: «هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال نعم. قال: «فأجب»[2]. فإذا كان ﷺ لم يرخص للأعمى الذي ليس له قائد يقوده إلى المسجد فما بالكم بغيره. وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم»[3]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من سرّه أن يلقى الله تعالى غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»[4].

= الترمذي (١/١٨٦/٣٠٢)، ابن ماجه (١/٣٣٦/١٠٦٠)، النسائي (٢/١٢٤).

(١) البخاري (٢/١٣١/٦٤٥)، مسلم (١/٤٥٠/٦٥٠)، الترمذي (١/١٣٨/٢١٥)، النسائي (٢/١٠٣).

(٢) مسلم (١/٤٥٢/٦٥٣)، النسائي (٢/١٠٩).

(٣) البخاري (٢/١٢٥/٦٤٤)، مسلم (١/٤٥١/٦٥١)، أبو داود (٢/٢٥١/٥٤٤)، ابن ماجه (١/٢٥٩/٧٩١)، النسائي (٢/١٠٧).

(٤) مسلم (١/٤٥٣/٦٥٤)، أبو داود (٢/٢٥٤/٥٤٦)، ابن ماجه (١/٢٥٥/٧٧٧)، النسائي (٢/١٠٨).

حكم صلاة الجمعة

معشر المسلمين:

تحدثنا في الجمعة الماضية عن الصفة الثانية من صفات المتقين، وهي إقامة الصلاة، وذكرنا حكم الصلاة ومنزلتها في الدين، وحكم تاركها، وحكم الجماعة فيها.

ونحن اليوم نتكلم عن حكم آخر يتعلق بأحكام الصلاة ألا وهو حكم صلاة الجمعة، ذلك لأننا رأينا أن كثيراً من المسلمين الذين هم على صلواتهم يحافظون، ربما تهاونوا في صلاة الجمعة حين يخرجون للنزهة والفسحة، وربما تشاغلوا عنها بما لا يعد عذراً في التخلف عن الجمعة. فأردنا أن يتم الحديث ويكمل الموضوع، ويعرف كل مسلم حكم صلاة الجمعة، التي هي من أعظم الصلوات التي فرضها الله تعالى، يدل على علو منزلتها وعظيم شأنها في الإسلام أن الله عزَّ وجلَّ أفرد لها سورة في القرآن سماها سورة الجمعة، وفيها أمر الله تعالى المؤمنين إذا سمعوا النداء من يوم الجمعة أن ينفضوا أيديهم من كل شاغل يشغلهم عن الصلاة ثم يسعوا إليها. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[1].

---

(١) الجمعة ٩.

على من تجب الجمعة؟

إن صلاة الجمعة فرض عين على كل مسلم، بالغ، عاقل، حر، ذكر، صحيح، مقيم، قال ﷺ : «الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك، أو صبي، أو امرأة، أو مريض»[1]. وقال ﷺ : «ليس على مسافر جمعة»[2].

فمن توفرت فيه هذه الشروط كانت صلاة الجمعة فرضاً عليه، لا يجوز له تركها، وأما العبد، والصبي، والمرأة، والمريض، والمسافر فلا تجب عليهم، لكن إن شهدوها كتبت لهم جمعة وأجزأتهم عن الظهر.

أما الدليل على فرضية الجمعة على الأعيان من الكتاب، فقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[3].

أما من السنة فقوله ﷺ «رواح الجمعة واجب على كل محتلم»[4].

ولقد أجمعت الأمة على أن الجمعة فرض عين على كل من توفرت فيه الشروط التي ذكرناها، فأيما مسلم أنكر فرضية الجمعة فقد كفر وخرج عن دائرة الإسلام، لأنه أنكر واجباً من الواجبات المعلومة من الدين بالضرورة.

فضل الجمعة :

معشر المسلمين: إن رسول الله ﷺ رغب في حضور الجمعة، وحث عليها، وبين عظيم فضلها، وكثرة الثواب الذي يحصله المسلم بحضورها. فقال ﷺ : «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارة لما بينهن ما

---

(١) أبو داود (١٠٥٤/٣٩٤/٣).

(٢) الدارقطني (٢/٤/٤). (٣) الجمعة ٩.

(٤) النسائي (٣/٨٩)، وهذا لفظه، أبو داود (٢/٦/٣٣٨) بنحوه.

لم تغش الكبائر»[1]. وقال ﷺ : «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسّ الحصا فقد لغا»[2].

التحذير من تركها:

وكما حث رسول الله ﷺ على حضور الجمعة حذر من التخلف عنها لغير عذر، وبين أن التخلف عن الجمعة لغير عذر من الأسباب الموجبة للختم على القلب، فلا يكاد يفقه شيئاً. قال ﷺ : «من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه»[3].

وعن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم قالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول وهو على أعواد منبره: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»[4].

وقال ﷺ : «لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ثم أنطلق إلى أقوام لا يشهدون الجمعة فأحرق عليهم بيوتهم»[5].

ما يستحب فعله يوم الجمعة:

إذا علمت أيها المسلم أنه يجب عليك المحافظة على صلاة الجمعة، فاعلم أن رسول الله ﷺ قد شرع لك سنناً وآداباً ينبغي لك الحرص عليها في كل يوم جمعة:

منها: الإكثار من الصلاة عليه ﷺ ليلة الجمعة ويومها، لقوله ﷺ : «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ. قالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد

---

(١) مسلم (٢٣٣/٢٠٩/١)، الترمذي (٢١٤/١٣٨/١).
(٢) مسلم (٨٥٧/٥٨٨/٢)، أبو داود (١٠٣٧/٣٧٤/٣)، الترمذي (٥٩٦/٥/٣)، ابن ماجه (١٠٩٠/٣٤٦/١).
(٣) أبو داود (١٠٣٩/٣٧٧/٣)، الترمذي (٤٩٨/٥/٢)، ابن ماجه (١١٢٥/٣٥٧/١)، النسائي (٨٨/٣).
(٤) مسلم (٨٦٥/٥٩١/٢)، النسائي (٨٨/٣).
(٥) مسلم (٦٥٢/٤٥٢/١).

أرمت ـ أي بليت ـ قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»(١).

ومنها: الغسل عند الرواح إلى الجمعة، لقوله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»(٢).

ومنها: أن يدهن ويتطيب، لقوله ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمسّ من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»(٣).

ومنها: التبكير إلى المسجد، لقوله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»(٤).

فإذا دخل المسجد فليبدأ بتقديم رجله اليمنى، ثم يقول: أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم(٥). بسم الله. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»(٦).

ثم يتقدم إلى الصفوف الأولى فيتمها، حتى لا يضطر من يأتي بعده لتخطي الرقاب لسد الفرج، فإن تخطى الرقاب ممنوع. عن جابر بن سمرة

---

(١) أبو داود (١٠٣٤/٣٧٠/٣)، ابن ماجه (١٠٨٥/٣٤٥/١)، النسائي (٩١/٣).
(٢) البخاري (٨٧٩/٣٥٧/٢)، مسلم (٨٤٦/٥٨٠/٢)، أبو داود (٣٣٧/٤/٢)، النسائي (٩٣/٣)، ابن ماجه (١٠٨٩/٣٤٦/١). (٣) البخاري (٨٨٣/٣٧٠/٢).
(٤) البخاري (٨٨١/٣٦٦/٢)، مسلم (٨٥٠/٨٥٢/٢)، أبو داود (٣٤٧/١٤/٢)، النسائي (٩٩/٣).
(٥) أبو داود (٤٦٢/١٣٢/٢).
(٦) ابن ماجه (٧٧١/٢٥٣/١)، الترمذي (٣١٣/١٩٧/١).

رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ **يوماً فرآنا حِلَقاً، فقال: «مالي أراكم عزين»، ثم خرج علينا بعد ذلك فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها». قالوا يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ فقال: «يتمون الصف** الأول فالأول ويتراصون في الصف»[1].

وإذا كان رسول الله ﷺ رغب في التبكير إلى الجمعة فقد حذر من التأخير، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ في أصحابه تأخرا، فقال «تقدموا فأتموا بي، وليأتم بكم من بعدكم، وما زال أقوام يتأخرون حتى يؤخرهم الله»[2]. فإذا دخل المسجد فليصل ركعتين قبل أن يجلس، فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس»[3].

فإذا صلى الداخل تحية المسجد فإن شاء تطوع بما كتب له، وإن شاء اشتغل بذكر الله عزّ وجل، من قراءة، أو استغفار، أو تسبيح وتحميد، ونحو ذلك حتى يخرج الإمام، فإذا خرج الإمام أقبل عليه واستمع له وأنصت، وليحذر من الكلام أثناء الخطبة فإن رسول الله ﷺ قال: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت»[4] وقول القائل لصاحبه «أنصت» من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومع ذلك فقد سماه عليه الصلاة والسلام لغواً، وذلك من باب ترجيح الأهم، وهو الإنصات لموعظة الخطيب، على المهم، وهو الأمر بالمعروف في أثناء

---

(١) مسلم (١/٣٢٢/٤٣٠)، أبو داود (٢/٣٦١/٦٤٧)، النسائي (٢/٩٢)، ابن ماجه (١/٣١٩/٩٩٢).

(٢) مسلم (١/٣٢٥/٤٣٨)، أبو داود (٢/٣٧٥/٦٦٦)، ابن ماجه (١/٣١٣/٩٧٨)، النسائي (٢/٨٣).

(٣) البخاري (١/٥٣٧/٤٤٤)، مسلم (١/٤٩٥/٧١٤)، أبو داود (٢/١٣٣/٤٦٣)، الترمذي (١/١٩٨/٣١٥)، ابن ماجه (١/٣٢٤/١٠١٣)، النسائي (٢/٥٣).

(٤) البخاري (٢/٤١٤/٩٣٤)، مسلم (٢/٥٨٣/٨٥١)، ابن ماجه (١/٣٥٢/١١١٠)، النسائي (٣/١٠٤)، أبو داود (٣/٤٦٠/١٠٩٩)، الترمذي (٢/١٢/٥١١).

الخطبة، وإذ الأمر كذلك، فكل ما كان في مرتبة الأمر بالمعروف ـ كتشميت العاطس، ورد السلام، ومتابعة الخطيب على ذكر الله، أو الصلاة على رسول الله، ونحو ذلك ـ فحكمه حكم الأمر بالمعروف، وما كان دونه في المرتبة فهو أولى بالمنع[1].

فإذا انصرف الإمام من الصلاة، استحب لكل مسلم أن يأتي بالأذكار المشروعة عقب الصلاة من الاستغفار ثلاثاً، بأن يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، ثم يقول: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام[2].

اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك[3]. ثم يقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص [4]، والمعوذتين[5]، ثم يقول: سبحان الله، ثلاثاً وثلاثين، والحمد لله، كذلك، والله أكبر، مثل ذلك، ثم يقول تمام المائة. لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير[6]. ثم يقوم فيصلي سنة الجمعة، لقوله ﷺ: «إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعاً»[7]. وكان ﷺ إذا انصرف من الجمعة صلى في بيته ركعتين[8]. وتلك هي السنة في صلاة النوافل أن تكون في البيت، لقوله ﷺ: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»[9].

---

(١) الأجوبة النافعة للألباني (٦٠).

(٢) مسلم (٥٩١/٤١٤/١)، الترمذي (٢٩٩/١٨٤/١)، النسائي (٣/٦٨)، أبو داود (١٤٩٩/٣٧٧/٤)، ابن ماجه (٩٢٨/٣٠٠/١).

(٣) أبو داود (١٥٠٨/٣٨٤/٤)، النسائي (٣/٥٣).

(٤) الطبراني في الكبير (٧٥٣٢/١٣٤/٨).

(٥) أبو داود (١٥٠٩/٣٨٥/٤)، النسائي (٣/٦٨).

(٦) مسلم (٥٩٧/٤١٨/١).

(٧) مسلم (٨٨١/٦٠٠/٢)، أبو داود (١١١٨/٤٨١/٣)، الترمذي (٥٢٢/١٧/٢).

(٨) مسلم (٨٨٢/٦٠٠/٢)، البخاري (٩٣٧/٤٢٥/٢).

(٩) هذا جزء من حديث رواه: البخاري (٧٣١/٢١٤/٢)، النسائي (٣/١٩٨)، مسلم (٧٨١/٥٣٩/١)، أبو داود (١٤٣٤/٣٢١/٣)، ولفظ الأخيرين: (فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة).

فإذا خرج المصلي من المسجد فليقدم رجله اليسرى ثم يقول: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك [١].

وأخيراً، لقد كان من هديه ﷺ في فجر الجمعة القراءة بسورتي السجدة والإنسان [٢] لأنهما يتحدثان عن المبدأ والمعاد وما بينهما، وما بعد المعاد من الحساب والجزاء، والجنة والنار، فكان ﷺ يريد بقراءته أن يذكر المسلمين بما كان وما يكون في يوم الجمعة، وذلك أن فيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة، فكأنه ﷺ يقول إذا علمتم أن الساعة تكون يوم الجمعة، فهذا يوم الجمعة، وهذا ما يكون إذا جاءت الساعة، فماذا أعددتم لها.

هذا ما أراده رسول الله ﷺ من قراءة هاتين السورتين يوم الجمعة، فظن بعض الناس أنه إنما أراد السجدة، وأن من خصائص يوم الجمعة اختصاص فجره بسجدة التلاوة، فتراهم يقرءون من السجدة آيتين قبل موضع السجود، ثم يسجدون، ثم يقومون فيقرأون آيتين ثم تنتهي الركعة، فإذا قاموا للثانية قرؤوا آيتين من الإنسان، وإن لم يفعلوا هذا قرؤوا بسورة أخرى فيها سجدة حتى يسجدوا، لظنهم أن سجود التلاوة من لوازم فجر الجمعة، علماً بأنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه سجد في موضع السجود من سورة السجدة في فجر الجمعة، ثبتت القراءة ولم تثبت السجدة، كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري شرح صحيح البخاري [٣].

ومن هنا استحب العلماء لأئمة المساجد أن لا يداوموا على سجدة التلاوة كل جمعة حتى يزاح هذا الإشكال الذي حصل عند كثير من الناس. وأن يحافظوا على قراءة السورتين كاملتين.

---

(١) هذا جزء من الحديث السابق قريباً في ذكر الدخول.
(٢) البخاري (٢/٣٧٧/٨٩١)، مسلم (٢/٥٩٠/٨٨٠)، النسائي (٢/١٥٩).
(٣) انظر زاد المعاد (١/١٠٠) وفتح الباري (٢/٣٧٩).

وكان من هديه ﷺ في صلاة الجمعة أنه أحياناً يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة الجمعة، وفي الثانية سورة المنافقون(1)، وأحياناً يقرأ من الأولى سورة الأعلى، وفي الثانية سورة الغاشية(2).

هذا هو هديه ﷺ ، وخير الهدى هديه، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

---

(1) مسلم (٢/٥٩٧/٨٧٧)، الترمذي (٢/١٦/٥١٨)، أبو داود (٣/٤٧٤/١١١١)، ابن ماجه (١/٣٥٥/١١١٨).
(2) مسلم (٢/٥٩٨/٨٧٨)، أبو داود (٣/٤٧٢/١١٠٩)، الترمذي (٢/٢٢/٥٣١)، النسائي (٣/١١٢).

الصفة الثالثة : الإنفاق في سبيل الله

يقول الله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُون أَمْوَالَهُم فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . . . ﴾

الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُبـدُوا الصَّدَقـاتِ فَنِعمَّا هِيَ وإِن تُخفُـوهَا وَتُؤتُـوهَا الفُقَـرَاءَ فَهُوَ خَيْـرٌ لَكُم وَيُكَفِّـرُ عَنكُمْ مِن سَيِّئَـاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1] .

معشر المسلمين: إن عباد الله المتقين قـوم أحسنوا فيمـا بينهم وبين الله بـإقام الصـلاة وأداء الفـرائض واجتنـاب المحـارم، وأحسنـوا فيمـا بينهم وبين عبـاد الله بإطعـام الجائـع، وكسوة العـاري، ومساعـدة المحتاج، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتاهُمْ رَبهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحسِنِينَ﴾ . ثُمَ فسر إحسانهم فقال: ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ . وهـذا هو إحسـانهم فيما بينهم وبين الله ، ثم قال: ﴿وَفِي أَمْوالِهِم حَقٌّ لِلسَّائِلِ والمحْرُومِ﴾[2] . وهذا هو إحسانهم إلى عباد الله .

---

(١) البقرة ٢٦١ ـ ٢٧١ .
(٢) الذاريات ١٥ ـ ١٩ .

الإنفاق في سبيل الله من أهم صفات المتقين، لأنهم قوم علموا أن المال الذي بأيديهم ليس مالهم وإنما هو مال الله، تفضل عليهم به، ثم اشتراه منهم، قال الله سبحانه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِين أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ** ﴾[1] فهم يتصرفون في هذه الأموال تصرف الأمين فيما اؤتمن عليه، وهو يعلم أنه لا يجوز له أن ينفق في شيء لا يحب صاحب المال أن ينفق فيه، ولذلك لما حث الله على عتق العبيد قال: ﴿ **والَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُم فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً، وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾[2]. فالمتقون يؤمنون أن المال الذي بأيديهم مال الله، وأنه لا يجوز لهم أن يمنعوه عمن أمر الله بإعطائه فهم ينفقون في سبيل الله بالليل والنهار سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور.

معشر المسلمين: لقد حث الله تعالى على الإنفاق في سبيله، ووعد الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله أن يضاعف لهم الأجر والثواب، قال تعالى: ﴿ **مثلُ الَّذِينَ ينفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّة واللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم** ﴾. وهذا التضعيف أيها الإخوة مشروط بشروط:

الشرط الأول: أن تكون النفقة في سبيل الله، لا رياء، ولا سمعة، ولا ليقال جواد.

الشرط الثاني: ﴿**ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى**﴾. فالذي يعطي ثم لا يمسك لسانه عن ذكر ما أعطى ومَنْ أعطى **فقد** أحبط أجره، ولو أنه لم يعطِ وردّ السائلَ بكلمة طيبة لكان خيراً له، ﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى**﴾.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنّ والأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ**

(١) التوبة ١١١.

(٢) النور ٣٣.

مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾(١).

الشرط الثالث: أن تكون الصدقة من كسب طيب، فقد قال ﷺ: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً».(٢)

فأيما مسلم أنفق من كسب طيب نفقة يحتسبها ولم يتبعها بمنٍّ ولا أذى فإن الله ينميها له حتى تكون أمثال الجبال، كما في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل»(٣).

ولقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان لا يرد سائلاً. عن أنس رضي الله عنه قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»(٤).

ولقد اقتدى أصحاب رسول الله به في الإنفاق، حتى إن أحدهم ليتصدق بماله كله لا يترك لأهله شيئاً. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً. قال: فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقلت: مثله. وأتى أبو بكر بكل ما عنده،

(١) البقرة ٢٦٣، ٢٦٤.
(٢) مسلم (١٠١٥/٧٠٣/٢)، الترمذي (٤٠٧٤/٢٨٨/٤).
(٣) البخاري (١٤١٠/٢٧٨/٣)، مسلم (١٠١٤/٧٠٢/٢).
(٤) مسلم (٢٣١٢/١٨٠٦/٤).

فقال: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً»(١).

ولقد حذر الله عزّ وجل من البخل، وبين أنه من عمل الشيطان فقال: **﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفقرَ ويأمرُكُمْ بالفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا، واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾**(٢). وقال تعالى: **﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرَاً لَهُم، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾**(٣).

قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مُثِّلَ له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: **﴿ولا يحسبن الذين يبخلون. . . ﴾** الآية(٤).

وقال الله تعالى: **﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا في سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا في نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾**(٥).

قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى

---

(١) الترمذي (٣٧٥٧/٢٧٧/٥)، أبو داود (١٦٦٢/٩٤/٥).
(٢) البقرة ٢٦٨.
(٣) آل عمران ١٨٠.
(٤) البخاري (١٤٠٣/٢٦٨/٣).
(٥) التوبة ٣٤.

الجنة وإما إلى النار»[1].

فيا معشر المسلمين: أنفقوا من مال الله الذي آتاكم، واعلموا أنه ليس لكم من أموالكم إلا ما أنفقتموه في سبيل الله، أما ما تركتموه وراء ظهوركم فلن يغني عنكم من الله شيئاً «يتبع الميت ثلاثة: أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله»[2].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

---

(١) مسلم (٢/٦٨٠/٩٨٧).
(٢) البخاري (١١/٣٦٢/٦٥١٤)، مسلم (٤/٢٢٧٣/٢٩٦٠)، الترمذي (٤/١٧/٢٤٨٥).
(٣) المنافقون ٩ ـ ١١.

الصفة الرابعة والخامسة: الإيمان بالمرسلين وما أنزل إليهم والإيمان باليوم الآخر.

قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ** ﴾[1] إن للإيمان أركاناً ستة، ذكرها رسول الله ﷺ في جوابه لجبريل حين أتاه في صورة رجل فسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وأشراط الساعة، فكان جوابه ﷺ عن الإيمان: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

فمن أركان الإيمان الإيمان برسل الله أجمعين ﴿ **لاَ نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ** ﴾[3]، والإيمان بما أنزل الله على هؤلاء المرسلين من الكتب ما ذكر الله لنا وما لم يذكر.

ومن الكتب التي سماها لنا ربنا: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، ثم القرآن الذي أنزله الله مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه.

---

(١) البقرة ٤.

(٢) مسلم (١/٣٦/٨)، الترمذي (٤/١١٩/٢٧٣٨)، أبو داود (١٢/٤٥٩/٢٦٧٠)، ابن ماجه (١/٢٤/٦٣)، النسائي (٨/٩٧).

(٣) البقرة ٢٨٥.

كما سمى الله تعالى لنا خمسة وعشرين رسولاً من جملة المرسلين:

في «تلك[1] حجتنا» منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس، هود، شعيب، صالح، ... ذو الكفل، آدم، بالمختار قد ختموا

فوجب الإيمان بهؤلاء وبغيرهم ممن لم يقصص الله علينا. قال تعالى:

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا آمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ والكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ والكِتَابِ الَّذي أَنْزَلَ مِن قَبل، وَمَنْ يَكفُرْ باللَّهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً ﴾[2]. وكما أمرنا نحن المسلمين بالإيمان بما أرسل الله من المرسلين وبالكتب التي أنزلها عليهم، كذلك أمر الله أهل الكتاب أن يؤمنوا برسول الله ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن، قال تعالى: ﴿ يا أيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمسَ وُجُوهاً فَنردَّها عَلَى أَدْبَارِهَا أو نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبتِ وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾[3].

وبين الله سبحانه أن الكفر برسول واحد كفر بجميع المرسلين، كما أن الكفر بكتاب واحد كفر بجميع الكتب، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذينَ يَكفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُريدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْض وَنَكْفُرُ بِبَعْض وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا، وأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾[4]. ولذا فأنت حين تقرأ سورة الشعراء تجد الله يقول: ﴿ كَذَّبَتْ قَومُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ ﴾[5]. ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المُرْسَلِينَ ﴾[6]. ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المُرْسَلِينَ ﴾[7]. ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المُرْسَلِينَ ﴾[8]. ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ المُرْسَلِينَ ﴾[9]. وحين تقرأ سورة

(١) الأنعام ٨٣ - ٨٦.
(٢) النساء ١٣٦.
(٣) النساء ٤٧.
(٤) النساء ١٥٠، ١٥١.
(٥) إلى (٩) الشعراء: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١، ١٦٠، ١٧٦.

«ق» تجد الله يقول: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (١).

فنسب الله إلى كل أمة التكذيب بجميع المرسلين، ومن المعلوم أن أكثر الأمم ما أتاهم إلا رسول واحد، مما يفيد ما ذكرناه من أن شرط الإيمان الإيمان بجميع المرسلين، وأن الكفر برسول واحد كفر بالجميع. قال الله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٢). وأمرنا الله أن نصدع بهذا الإيمان فقال: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣). ثم بين ربنا أن أهل الكتاب لا ينفعهم ما هم عليه حتى يؤمنوا بمثل ما آمنا به فقال: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ (٣).

هذه هي الصفة الرابعة من صفات المتقين.

أما الصفة الخامسة فهي الإيمان بالآخرة ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤).

واليقين هو الاعتقاد الجازم الذي لا يتطرق إليه شك ولا ريب، فكما تعتقد الآن أنك موجود في هذا المسجد لا تشك في هذا ولا ترتاب، يجب عليك أن تعتقد وتوقن أنك بعد الموت مبعوث، وأنك بين يدي الله موقوف، ومن الله مسئول عما قدمت وأخرت. إن اليقين بالآخرة هو الحارس الأمين

---

(١) ق ١٢ - ١٤.
(٢) البقرة ٢٨٥.
(٣) البقرة ١٣٦، ١٣٧.
(٤) البقرة ٤.

للعقيدة السليمة، إن اليقين بالآخرة هو الحاكم الضابط لتصرفات الإنسان وأفعاله، والمؤمن بالآخرة لا يصدر منه إلا كل جميل، وإذا زلت به قدم بادر إلى الاستغفار، وندم على ما بدر منه مما لا يليق به. والكافر بالآخرة لا يصدر منه إلا كل قبيح، ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ** ﴾ (١). ﴿ **هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ** ﴾ (٢)، لا يتورع عن هتك حرمات الناس، ولا يكف عن ظلمهم، لأنه يعتقد أنه غير مجزي بما يعمل، ولو أنه آمن بقول الله: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** ﴾ (٣). لو أنه آمن بأن دواوين المظالم ستنشر يوم القيامة وأن الحقوق سترد إلى أهلها، لامتنع من الفساد في الأرض بظلم الناس والعمل بسائر المعاصي.

معشر المسلمين: لقد أعلم ربنا سبحانه عباده أنهم إليه راجعون من أول لحظة نزل فيها آدم إلى الأرض ﴿ **قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾ (٤).

كذلك كان المرسلون يبدأون في دعوة أقوامهم بالدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، ها هو نوح عليه السلام يقول لقومه ﴿ **وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** ﴾ (٥). وإبراهيم عليه السلام يقول لقومه ﴿ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ**

---

(١) البقرة ٢٠٥.
(٢) القلم ١١، ١٢.
(٣) الزمر ٣٠، ٣١.
(٤) الأعراف ٢٤، ٢٥.
(٥) نوح ١٧، ١٨.

أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ . . ﴾ الآيات . (١)

ولما نادى الله موسى لأول مرة كان مما قاله له: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾(٢). ولما تكلم عيسى في المهد صبياً قال: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾(٣).

أما نبينا محمد ﷺ فقد أمره الله تعالى أن يقسم بربه على البعث والحساب:

قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾(٤). ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾(٥).

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٦).

معشر المسلمين: إن المتأمل للقرآن، يجد الله عزَّ وجل قد ذكر من الأدلة والبراهين على وقوع البعث وقيام الناس لرب العالمين ما لا يرتاب معه إلا مرتاب ولا يهلك بعده إلا هالك، وبالتأمل في القرآن الكريم نجد الأدلة على وقوع البعث أنواعاً أربعة:

الأول: أن الله خلق الخلق لأول مرة، ومن خلق مرة لا يعجز عن الإعادة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ،

---

(١) الشعراء ٧٥ - ٨٩.
(٢) طه ١٥، ١٦.
(٣) مريم ٣٣.
(٤) يونس ٥٣،
(٥) سبأ ٣.
(٦) التغابن ٧.

﴿ وَلَـهُ المثلُ الأَعْلَى فِي السَّمَـوَاتِ والأَرْضِ وَهُـوَ العَـزِيـزُ الحَكِيمُ ﴾[1].

ولـذلـك لمـا جـاء أحـد الكـافـرين بعـظم قد رمّ ففتته في يـده، ثم ذراه في الهـواء، وقال: يـا محمد أتـزعم أن الله يحيي هذا بعـد ما رم؟ قـال له ﷺ: «نعم ويبعثـك ويدخلك جهنم [2]. ونـزلت الآيات في آخـر سورة يٓس. ﴿ أو لم يَـرَ الإِنْسَانُ أَنَّـا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُـطْفَةٍ فَـإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَـرَبَ لَنَـا مَثَـلاً وَنَسِيَ خَلْقَـهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِـظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ يُحْيِيهَـا الَّذِي أَنْشَـأَهَـا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَلِيم ﴾[3].

الثاني: أن الله تعالى خلق ما هو أشد وأعظم من خلق الإنسان، ومن قدر على الأشد والأعظم أيعجز عما دونه، قال تعالى: ﴿ أَأَنْتُم أَشَدُّ خَلْقاً أَم السَّمَاءُ؟ بَنَاها ﴾[4]. السماء أشـد وأكبر خلقـاً، بشهادة القـرآن حيث يقول ربنـا ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَـرُ مِنْ خَلْقِ النَّـاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ ﴾[5]. فمن قدر على خلق السمـوات والأرض وهمـا أشـد خلقـاً من الإنسـان أيعجز عن أن يعيـد الإنسان مـرة ثـانيـة ﴿ أَوَ لَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّـذِي خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَـوْتَى؟ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾[6].

الثـالـث: أنك أنت أيهـا الإنسـان تمـوت وتحيى في اليـوم والليلة أكثـر من مـرة، فكيف تنكر أن يبعثـك الله يوم القيـامـة؟ ألست تنـام؟ بلى. والنـوم وفاة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَـرَحْتُمْ بِالنَّهَـارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيـهِ لِيُقْضيَ أَجَـلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْـهِ مَـرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[7]. وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَـوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَـا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ

---

(١) الروم ٢٧.

(٢) الحاكم (٢/٢٢٩).

(٣) يٓس ٧٧ - ٧٩.

(٤) النازعات ٢٧.

(٥) غافر ٥٧.

(٦) الأحقاف ٣٣.

(٧) الأنعام ٦٠.

فِي منامها، ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

ولـذا كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين(٢). فإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»(٣)، «الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره» (٤).

الرابع: أنك ترى الأرض قبل نزول المطر هامدة، فإذا جاء الغيث اهتزت وربت ﴿كَذَٰلِكَ الخُرُوجُ﴾ (٥). قال تعالى: ﴿وَتَرى الأَرضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَىٰ وأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ (٦). هذه أدلة وبراهين على إمكان البعث ورجوع العباد إلى الله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الذي أنزَلنَا واللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. يَومَ يَجمَعُكُم لِيَوم الجَمعِ ذَٰلِكَ يَومُ التَّغَابُنِ ومَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ ويَعمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجرِي مِنْ تَحتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ. والَّذِينَ كفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُوْلَٰئِكَ أصحابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيها وبِئْسَ المَصِيرُ﴾ (٧).

---

(١) الزمر ٤٢.

(٢) البخاري (٦٣٢٠/١٢٥/١١)، مسلم (**٢٧١٤**/٢٠٨٤/٤)، الترمذي (٣٤٦١/١٣٩/٥)، أبو داود (٥٠٢٩/٣٩١/١٣).

(٣) البخاري (٦٣١٢/١١٣/١١)، مسلم (٢٧١١/٢٠٨٣/٤)، الترمذي (٢٤٧٧/١٤٦/٥)، أبو داود (٥٠٢٨/٣٩١/١٣)، ابن ماجه (٣٨٨٠/٢٧٧/٢).

(٤) الترمذي (٣٤٦١/١٣٩/٥).

(٥) ق ١١.

(٦) الحج ٥-٧.

(٧) التغابن ٨، ٩، ١٠.

الصفة السادسة: التوسل إلى الله بصالح الأعمال

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبنينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ منَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ . . . ﴾ الآيات إلى ﴿ . . . والمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحَارِ ﴾[1].

ذكر تعالى في الآية الأولى شهوات الدنيا ولذاتها التي يتطلع إليها أكثر الناس، ثم أمر رسوله أن يقول: «أؤنبئكم بخير من ذلكم» هل أدلكم على ما هو خير من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، هل أدلكم على ما هو خير من ذلك كله؟ «للذين اتقوا عند ربهم» ذكر الجوار قبل الدار، «للذين اتقوا عند ربهم» وكفى بهذا شرفاً، أن يكون المتقون في جوار ربهم عزَّ وجل يوم القيامة، ولهم في هذا الجوار «جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها». فلا يفنى نعيمها ولا يزول ولا ينتهي، إن نعيم الدنيا مهما طال زمنه إلى نهاية، إن شهوات الدنيا مهما قضى الإنسان منها وطره فإنَّ زمنها محدود، أما نعيم الآخرة فإنه دائم أبداً لا نهاية له. ولهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ولهم فيها أزواج مطهرة، «ورضوان من الله أكبر».

---

(١) آل عمران ١٤ - ١٧.

هذا كله للذين اتقوا ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار**﴾

معشر المسلمين: خلق الله الخلق بعلمه، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وأخبرهم بما أعد للطائعين في جنات النعيم، وحثهم على المسارعة إلى هذه الجنان وأمرهم بالتنافس على ذلك، فقال تعالى:

﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾(1). وقال تعالى: ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾(2). ولما ذكر نعيم أهل الجنة في سورة المطففين قال عقب ذلك ﴿ **وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ (3).

وكما حثهم على طاعته حذرهم من معصيته، وأخبرهم بما أعد للعصاة من العذاب، وأمرهم أن يتقوا هذا العذاب، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾(4).

وأعلم الله عباده أن هذه الدنيا مزرعة الآخرة، وأنها دار العمل، فمن **خرج منها مفرّطاً فلن يستطيع تدارك تفريطه، ومن خرج منها مقصراً فلن** يستطيع أن يجبر هذا التقصير، وإذ الأمر كذلك فعليهم أن يغتنموا فرصة وجودهم في هذه الحياة، وأن يتزودوا من الأعمال الصالحة التي توجب لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار.

ثم بين سبحانه أن من فاته الإيمان في الدنيا لا ينجيه من عذاب الله

---

(1) ال عمران ١٣٣.
(2) الحديد ٢١.
(3) المطففين ٢٦.
(4) التحريم ٦.

ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به. يقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيهِ الوسيلَةَ وجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لو أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ من عَذابِ يومِ القِيَامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ومَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾[1].

ففي هذه الآيات يأمر الله عباده المؤمنين أن يبتغوا إليه الوسيلة، والوسيلة هي ما يتوصل به إلى كل مطلوب مرغوب. كل ما ترغبه وترجو تحصيله لا بد له من وسيلة تحصله بها، والفوز برضى الله، والنجاة من عذابه، كل ذلك له وسيلة لتحصيله، وهي الإيمان بالله والعمل الصالح، ولذا أثنى ربنا على المتقين بأنهم يقولون ﴿ ربَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فاغفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[2]. وأنهم يقولون: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي للإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا معَ الأَبْرَارِ رَبَّنَا وآتِنَا مَا وَعَدتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ولا تُخْزِنَا يَومَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعادَ ﴾[3].

فإذا أردت أن تتوسل إلى الله ليجعلك من أهل الجنة، وينجيك من عذاب النار، فليس لك من وسيلة لذلك إلا أن تتوسل إلى الله بإيمانك بأن تقول: اللهم إني أتوسل إليك بإيماني بك وملائكتك وكتبك ورسلك واليوم الآخر أن تغفر لي.

وبعد التوسل بالإيمان يأتي التوسل بالأعمال الصالحة كالصلاة والصيام، وبر الوالدين وصلة الرحم، وترك المحرمات، فكل هذه الأعمال

---

(١) المائدة ٣٥ - ٣٧.
(٢) آل عمران ١٦.
(٣) آل عمران ١٩٣، ١٩٤.

أعمال صالحة، فإذا كانت لك حاجة أو نزلت بك مصيبة فتذكر عملاً عملته لله خالصاً، ثم قل: اللهم إني أتوسل إليك بهذا العمل الذي عملت، إن كان خالصاً لوجهك وابتغاء مرضاتك أن تقضي حاجتي، أو تصرف عني ما نزل بي من البلاء.

ففي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة. فانفرجت الصخرة شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم، وكنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فأردتها على نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء، وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليّ أجري، فقلت:كل ما ترى من أجرك من

الإبـل والبقر والغنم والـرقيق. فقـال يـا عبـد الله لا تستهـزىء بي! فقلت: لا أستهزىء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مـا نحن فيـه. فـانفـرجت الصخـرة فخـرجـوا يمشون[1].

فإذا علمت هذا أيها المسلم فاعلم أن من الأخطاء الشائعـة قول القـائل إن كـانت له حـاجة أو نـزل به بـلاء: اللهم إن قضيت حاجتي أو كشفت عني هذا البلاء فعلت لك كذا وكـذا من صيام أو صـلاة أو صدقـة، وهذا هـو النذر الـذي نهى عنـه رسـول الله ﷺ وبين أنـه لا يـرد من قـدر الله شيئـاً وإنمـا يستخرج به من مـال البخيل[2]، فـإن كانت لـك يا عبـد الله حاجـة فقم فصل ركعتين أو صم يـوماً أو تصـدق بشيء ولو قليـل، ثم قـل: اللهم إني أتـوسـل إليـك بهـذا العمـل إن كـان خـالصـاً لـوجهـك وابتغـاء مـرضـاتـك أن تقضي حاجتي، فيقضي الله حاجتك.

ومن الأخطاء الشائعة قول القائل: اللهم بحق فـلانٍ وبجاه فـلانٍ اقضِ حاجتي، وهذا تـوسل غيـر مشروع، فليحـذر المسلمون منـه. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) البخاري (٦٦٩٣/٥٧٦/١١)، مسلم (١٦٣٩/٢٦٠/٣)، أبو داود (٣٢٦٣/١٠٩/٩)، النسائي (١٦/٧).
(٣) آل عمران ١٦.

الصفة السابعة: الصبر

إن الصبر خلق حميد، وصفة من الصفات الجميلة التي يجب على المسلم أن يتحلى بها. وهو من أعظم صفات الرب عزّ وجل، ولولا صبر الله على عباده لعجل لهم العذاب، ولذا قال الرسول ﷺ: «لا أحد أصبر **على أذى يسمعه من الله، إنه يُشْرَكُ به ويُجْعَلُ** له الولد ثمّ هو يعافيهم ويرزقهم»(١)، والصبر من أهم صفات المرسلين عليهم الصلاة والسلام، فلقد كذبوا وأوذوا، فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله. وكذلك صبر أتباعهم على دينهم حتى كان يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه. والصبر من أهم صفات المتقين، وقد ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعاً من القرآن الكريم: منها قوله تعالى لنبيه ﷺ **﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَهُمْ﴾**(٢)، وقال: **﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوت إذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾**(٣).

---

(١) مسلم (٢٨٠٤/٢١٦٠/٤)، وهذا لفظه، البخاري (٦٠٩٩/٥١١/١٠).
(٢) الأحقاف ٣٥.
(٣) القلم ٤٨.

وأمـر الله تعالى المؤمنين بمـا أمر به نبيهم، ونهـاهم عمـا نهـاه عنـه من الاستعجال، فقال: ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا اصْبِـرُوا وصَابِـرُوا وَرَابِطُوا واتَّقُـوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ ﴾[١]. وقال: ﴿ وَلاَ تهِنُـوا وَلاَ تَحْزَنُـوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

وبين الله تعـالى أن الفلاح والنجـاح في الدنيـا والآخرة مـربوط بـالصبـر والتقوى، فقال: ﴿ يا أَيُّها الَّـذِينَ آمَنُوا اصْبِـرُوا وصَابِـرُوا ورَابِطُوا واتَّقُـوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾[١].

وبين سبحانه أنه يضاعف للصابرين أجرهم أضعافاً كثيرة بغيـر حساب، فقال: ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَـرَّتَيْنِ بما صَبَـرُوا ﴾[٣]. وقال: ﴿ إِنَّمـا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْـرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَـابٍ ﴾[٤]. ولذا قـال بعض السلف: ما من عمـل صـالح إلا وأجـره معلوم إلا الصبر فقـد قال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا يُـوَفَّى الصَّابِـرُونَ أَجرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٤]. ثم قال: أي كالماء المنهمر لا ينقطع.

وبين سبحـانه أن الصبـر عُدَّةٌ يَتَقَوَّى الإنسان بهـا على مواجهـة عدوه، فقال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بالْصَّبْرِ والصَّلاَةِ ﴾[٥]. وبين سبحـانه أن الصبـر جُنة من كيد الأعداء فقال: ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرَّكُمْ كَيدُهُمْ شَيْئاً ﴾[٦].

وبين سبحانه أن الصبـر سبب النصر، فقـال: ﴿ بَلىٰ إِنْ تَصْبِروا وَتَتَّقُـوا ويَـأْتُـوكُمْ مِنْ فَـورِهِمْ هَـذَا يُمـدِدكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَـةِ آلآفٍ مِنَ المَـلاَئِكَـةِ مسَوِّمِينَ ﴾[٧]. وقال الرسول ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»[٨].

(١) آل عمران ٢٠٦.
(٢) آل عمران ١٣٩.
(٣) القصص ٥٤.
(٤) الزمر ١٠.
(٥) البقرة ٤٥.
(٦) آل عمران ١٢٠.
(٧) آل عمران ١٢٥.
(٨) مسند احمد

وقد جمع الله تعالى للصابرين ثلاث خصال لم يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون. أُوْلَئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ ﴾(١).

وبين سبحانه أن التمكين في الأرض ثمنه الصبر، فقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته بعد أن كشف لهم عن هويته ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾(٢).

كما بين سبحانه أن الإمامة في الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٣).

وبين سبحانه أن خصال الخير لا ينالها إلا الصابرون، فقال تعالى في قصة قارون حين خرج على قومه في زينته فتطلع إليه أهل الدنيا وتمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون:

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾(٤)

وبين سبحانه أنَّ مقابلة السيئة بالحسنة تجعل المسيء صديقاً حميماً، وأنه لا يقوى على ذلك إلا الصابرون، فقال: ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَينَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾(٥).

وبين النبي ﷺ أنه لم يعط أحد خيراً من الصبر، فقال: «ومن يتصبر

(١) البقرة ١٥٥ - ١٥٧.
(٢) يوسف ٩٠.
(٣) السجدة ٢٤.
(٤) القصص ٧٩، ٨٠.
(٥) فصلت ٣٤، ٣٥.

يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[1].

معشر المسلمين: هذه منزلة الصبر في الدين، وقد قال بعض السلف: إن الصبر من الدين كالرأس من الجسد، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فهو إيمان قليل ضعيف، يخشى على صاحبه أن يفتن بأقل الفتن والعياذ بالله، ولذا تصبروا وسلوا الله دائماً أن يرزقكم الصبر، وادعوه كما علمكم على لسان سحرة فرعون لما توعدهم فرعون بالتعذيب بعد إيمانهم قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[2].

معشر المسلمين: إذا علمنا هذا فما هو الصبر؟ وما هي حقيقته؟

إن الصبر معشر المسلمين ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على ما ينال الإنسان في هذه الدنيا من البلاء.

إن الجنة قد حفت بالمكاره، وحفت النار بالشهوات[3]، والمكاره التي حفت بها الجنة هي الطاعات، وسميت مكاره لأنها ثقيلة على النفس، ما من طاعة إلا وهي ثقيلة على النفس ولن يستطيع المسلم طاعة ربه إلا إذا صبر عليها، فإذا نفد صبره ترك الطاعة، وهذا يظهر جلياً في الصيام، فالصائم إذا نفد صبره أثناء النهار وغلبته شهوته ترك الصوم وأتى ما اشتهت نفسه.

وأما النار فقد حفت بالشهوات، وهي المحارم التي حرمها الله، الزنا حرمه الله ومع ذلك تتمناه النفس، الخمر حرام، والنفس تشتهيها، ولن يستطيع المسلم ترك الحرام والبعد عنه إلا بالصبر.

وقد أمر الله تعالى عباده أن يستعينوا بالصبر على كل حوائجهم دينية

---

(١) البخاري (١٤٦٩/٣٣٥/٣)، مسلم (١٠٥٣/٧٢٩/٢).

(٢) الأعراف ١٢٦.

(٣) هذا معنى حديث رواه مسلم (٢٨٢٢/٢١٧٤/٤)، الترمذي (٢٦٨٤/٩٧/٤).

كـانت أو دنيويـة، فقال تعـالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِـالْصَّبْرِ وَالصَّـلاَةِ ﴾(١). وقـال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾(٢). فعلى المسلم أن يـوطن نفسـه على الصبـر على دين الله، وعليـه أن يعلم أن الـطريق إلى الله طـريق شاق، وأن السفر إلى الله طويل، ولن يقـطع الطريق إلا من صبـر على مشاقـه وركب صعـابه، فـاصبروا وصـابروا ورابـطوا، ومن حدثتـه نفسه بـالتخلي عن دينـه وترك طـاعـة ربـه، فليقـل لهـا يـا نفس اصبـري، فمـا هي إلا لحـظات وتنتقلين إلى الدار الآخرة فتحمدين صبرك وما قدمتيه في هذه الحياة.

أمـا الصبر على البـلاء فإن الله يقـول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالجُـوعِ وَنَقصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَـرَاتِ وَبَشِّـرِ الصَّـابِـرِينَ ﴾(٣). فهذه الدنيـا دار الابتلاء، ودار المحن والفتن: ﴿ أَحَسِبَ النَّـاسُ أَن يُتْرَكُـوا أَنْ يَقُـولُوا آمَنَّـا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ . وَلَقَـدْ فَتَنَّا الَّـذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّـذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾(٤).

فعلى المسلم أن يـوطن نفسه على الصبـر على كل مـا يأتيـه من الله عزّ وجل، وأن يعلم أن الله في ابتلائـه حكمة، فـإن صبر كـان خيراً لـه، وإن فزع وجزع فإن ذلك لا يرد من قضاء الله شيئاً.

عن أم سلمـة قالت: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «مـا من عبد تصيبـه مصيبـة فيقول: إنـا لله وإنا إليـه راجعـون. اللهم أجـرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيـراً منها». قـالت: فلما توفى أبـو سلمة قلت كمـا أمرني رسـول الله ﷺ فأخلف الله لي خيـراً منه رسول الله ﷺ »(٥).

---

(١) البقرة ٤٥.
(٢) البقرة ١٥٣.
(٣) البقرة ١٥٥.
(٤) العنكبوت ٢، ٣.
(٥) مسلم (٢/٦٣١/٩١٨).

وعن أنس قال: كان ابن لأبي طلحة رضي الله عنه يشتكي، فخرج أبو طلحة فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان، فقربت له العشاء فتعشى ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره. فقال: «أعرستم الليلة؟» قال: نعم. قال: «اللهم بارك لهما» فولدت غلاماً. فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي ﷺ ، وبعث معه بتمرات، فأخذه النبي ﷺ فقال: «أمعه شيء؟» قال: نعم تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في فيّ الصبي ثم حنكه وسماه عبد الله[1]. فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن ـ يعني من أولاد عبد الله المولود[1].

فهذا جزاء الصبر في الدنيا، وجزاؤه يوم القيامة خير وأبقى ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[2].

معشر المسلمين: إن من أحوج الناس إلى الصبر الدعاة إلى الله عزّ وجل، لأن الدعاة يحولون بدعوتهم بين الناس وبين ما يشتهون مما حرم الله، وذلك أمر ثقيل على النفس ولذا كان المدعوون دائماً يقابلون الدعاة بالأذى والاضطهاد، ولذا كان من وصايا لقمان لابنه وهو يعظه ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ** ﴾[3].

فعلى الدعاة أن يتحلوا بالصبر، وأن لا يتعجلوا الثمرة، عليهم أن يؤدوا ما عليهم من واجب الدعوة إلى الله، وأن يتركوا النتائج لله تعالى، ولذا يروى عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار

---

(١) البخاري (٥٤٧٠/٥٨٧/٩)، (١٣٠١/١٦٩/٣)، مسلم (٢١٤٤/١٦٨٩/٣).
(٢) الزمر ١٠.
(٣) لقمان ١٧.

فيـوضع على رأسـه فيجعل نصفين ويمشط بـأمشـاط الحـديـد مـا دون لحمـه وعظمه ما يصده ذلـك عن دينه، والله ليتمن الله هـذا الأمر حتى يسيـر الراكب من صنعـاء إلى حضـرمــوت لا يخـاف إلا الله والــذئب على غنمـه، ولكنكم تستعجلون»[1].

(١) البخاري (٣٦١٢/٦١٩/٦)، أبو داود (٢٦٣٢/٣٠٨/٧).

الصفة الثامنة : الصدق

أ ـ الصدق مع عباد الله

أيها الإخوة المسلمون :

لقد وصف الله المتقين بالصدق فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(1) .

فالصدق من أهم صفات المتقين . وقد أمرنا الله تعالى أن نكون مع الصادقين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾(2) . ومدح الله تعالى الصدق وأهله فقال عن إسماعيل عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾(3) .

ومدح الله المؤمنين على صدقهم وأعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً ،

(1) آل عمران ١٤ ـ ١٦ .
(2) التوبة ١١٩ .
(3) مريم ٥٤ ، ٥٥ .

فقـال: ﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّـادِقِينَ وَالصَّادِقَـاتِ وَالصَّابِـرِينَ وَالصَّـابِـرَاتِ وَالخَـاشِعِينَ وَالْخَـاشِعَـاتِ وَالمُتَصَـدِّقِينَ وَالمُتَصَـدِّقَـاتِ وَالصَّـائِمِينَ والصَّـائِمَـاتِ وَالحَـافِـظِينَ فُـرُوجَهُمْ وَالحَـافِظَاتِ وَالـذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيـرَاً والـذَّاكِـرَاتِ أَعَـدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيماً ﴾[١].

وقال النبي ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[٢]. والصديقية درجة دون درجة النبوة، وفوق درجة الشهادة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَـأُولَئِكَ مَـعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّـدِّيقِيـنَ وَالشُّـهَـدَاءِ وَالصَّـالِحِيـنَ وَحَسُـنَ أُوْلَئِـكَ رَفِيقاً ﴾[٣].

وكما مدح الله الصدق وأهله ذم الكذب وأهله، وجعل الكذب من خصائص الكافرين والمنافقين فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَـا يَفْتَرِي الكَـذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾[٤].

وقال عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزَادَهُم اللَّهُ مَـرَضَـاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِما كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[٥].

وقد نعى الله تعالى على أقوام جَرْيهم وراء الظنون التي ملأت عقولهم بالخرافات وأفسدت عليهم حاضرهم ومستقبلهم، فقال تعالى: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُـونَ إِلَّا الـظَّنَّ وَمَـا تَهْـوَى الأَنْفُسُ وَلَقَـدْ جَـآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُـدَى ﴾[٦]. وقـال:

(١) الأحزاب ٣٥.
(٢) البخاري (٦٠٩٤/٥٠٧/١٠)، مسلم (٢٦٠٧/٢٠١٢/٤)، أبو داود (٤٩٦٨/٣٣٣/١٣)، الترمذي (٢٠٣٨/٢٣٤/٣).
(٣) النساء ٦٩.
(٤) النحل ١٠٥.
(٥) البقرة ١٠.
(٦) النجم ٢٣.

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾[1].

وقال النبي ﷺ : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[2]. وقال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[3]. وقال: «وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[4].

فعلى المسلمين أن يعظموا الصدق، وأن يتحروه في كل أقوالهم، وأن يحذروا الكذب ويجتنبوه على كل حال، فإن الله تعالى توعد الكاذبين بوعيد شديد، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾[5] وكلما عظم ضرر الكذب عظم إثمه ووزره:

فأعظم الكذبِ الكذبُ على الله ، والكذب على الله يكون بالقول في الدين بغير كتاب ولا هدى فمن قال في الدين برأيه من غير أن يستند إلى دليل شرعي فقد افترى على الله الكذب، والله يقول: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[6]. ويقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ . وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[7]. ما ظن الذين يقولون بألسنتهم

(١) النجم ٢٨ .
(٢) البخاري (٩/١٩٨/٥١٤٣)، مسلم (٤/١٩٨٥/٢٥٦٣)، أبو داود (١٣/٢٥٩/٤٨٩٦)، الترمذي (٣/٢٤٠/٢٠٥٥).
(٣) الترمذي (٤/٧٧/٢٦٣٧)، النسائي (٨/٣٢٧).
(٤) هذا جزء من حديث «عليكم بالصدق» ومضى قريباً.
(٥) الزمر ٦٠.
(٦) النحل ١١٦ ، ١١٧ .
(٧) يونس ٥٩ ، ٦٠ .

من غير علم ولا هدى هذا حلال وهذا حرام؟ ما ظنهم حين يلقون الله فيسألهم لم حرمتم هذا؟ وأحللتم ذاك؟ ولذا قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول هذا حلال فيقول الله له: كذبت ما أحللته، وليحذر أحدكم أن يقول هذا حرام، فيقول الله له: كذبت ما حرمته [1].

فالواجب على كل متكلم في الدين أن يتقي الله، ولا يفتي إلا بالدليل الثابت من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، فإن القول بغير دليل كذب على الله، وقد فاق درجة الشرك قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [2].

وبين سبحانه أن القول على الله بغير علم من عمل الشيطان، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [3].

وإذا كان الكذب على الله بهذه المنزلة، فإن الكذب على رسوله في نفس المنزلة، ولذا قال ﷺ: «إن كذبا عليّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [4] فليتق الله رجال أطلقوا لأنفسهم العنان، يتكلمون في الدين بغير بينة ولا دليل، ليتق الله هؤلاء، وليعلموا أنهم إلى الله راجعون، وبين يديه موقوفون؛ وعن كل ما صدر منهم مسئولون وليعدوا للسؤال جواباً.

ومن أعظم الكذب الكذبُ لتضييع حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل، قال ﷺ: «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له

(٩) مفتاح دار السعادة.
(٢) الأعراف ٣٣.
(٣) البقرة ١٦٨، ١٦٩.
(٤) البخاري (١٢٩١/١٦٠/٣)، مسلم (١/١٠/٤).

النـار وحرم عليـه الجنة». فقـال رجل: وإن كـان شيئـاً يسيـراً يـا رسـول الله؟ فقال: «وإن قضيباً من أراك»(١).

معشـر المسلمين: إن الكـذب خلق رذيـل، لا يجـوز للمسلم أبـداً أن يكون متصفاً بـه، وكفى وعيداً للكـاذبين أن تسود وجـوههم يوم القيـامة، قـال تعـالى: ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَـامَةِ تَـرَى الَّذِينَ كَـذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُـوهُهُمْ مُسْوَدَّة، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾(٢).

لقد بلغ من اهتمام الإسلام بالصدق والحث عليه والتـرغيب فيه أن أمـر المسلمين أن ينشئوا صبيانهم من الصغر على الصدق، فإذا وعد الـرجل ولـده وعدا وجب عليه أن يفي له بوعـده، وإن أخبره خبـراً وجب عليه أن يصـدقه، حتى ينشأ الصغار من صغرهم متعودين على الصدق، محبين له.

عن عبـد الله بن عامر قال: نادتني أمي فقالت: تعال أعطك، ورسول الله قاعـد في بيتـنـا، فقـال ﷺ: «مـا أردت أن تعـطيه»؟. قالـت: أردت أن أعطيه تمـراً. فقال ﷺ: «أمـا إنك لـو لم تعطه لكتبت عليـك كذبـة»(٣). أين المسلمـون من هذا؟ إن النـاظر في أحـوال المسلمين يجد العجب العجـاب، إن الآباء والأمهات لم يكتفـوا بتحريهم الكـذب مع أنفسهم ومـع غيرهم حتى تحروه مع أطفالهم وصبيانهم. يـدق جرس البـاب أو التليفون، فيـرد الصبي، فإذا سئل عن أبيه نظر إليـه مستفهماً، فيقـول الأب: قل غيـر موجـود. أَصِدْق هذا؟

أهـذه تنشئـة لـلأولاد على الصـدق؟ فليتق الله الآبـاء، وليكـونـوا أكثـر صدقاً مع أبنائهم فإن البيت هو المـدرسة الأولى التي يتعلم فيهـا الأطفال كـل ما يخرجون به على النـاس، فإذا تعـودوا الصدق في البيت كـانوا صـادقين مع الناس، وإن تعودوا الكذب تعاملوا به مع الناس.

---

(١) مسلم (١٣٧/١٢٢/١)، النسائي (٨/٢٤٦).
(٢) الزمر ٦٠.
(٣) أبو داود (٤٩٧٠/١٣/٣٣٥).

معشر المسلمين: ولقد بلغ من اهتمام الإسلام بالصدق أنه لم يبح الكذب حتى في المزاح، إن بعض الناس إذا مزح ولهى وأراد أن يضحك إخوانه افترى الكذب واختلقه ليضحكهم والإسلام لا يجيز هذا الكذب بل يحرمه وينهى عنه ويتوعد فاعله، يقول النبي ﷺ: «ويل للذي يحدث بالحديث فيكذب فيه ليضحك القوم، فيعذبه الله، ويل له ويل له»[١]. فلا يجوز الكذب ولو كان الرجل مازحاً، فإن في الحلال مندوحة عن الحرام، وإن في الصدق مندوحة عن الكذب، فعلى المسلم أن يتحرى الصدق ولو كان مازحاً.

كما بلغ من اهتمام الإسلام بالصدق أن حث أتباعه على الصدق في كل معاملاتهم، في بيعهم وشرائهم، في مدحهم الناس، في شهادتهم على الناس:

يقول النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»[٢].

ومدح الناس مدرجة إلى الكذب، والذي يتعود مدح الناس لا بد أن يكذب لا محالة، لذا «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب»[٣]. وعلمنا رسول الله ﷺ كيف يكون المدح. عن أبي بكرة رضي الله عنه: أن رجلاً ذُكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي ﷺ: «ويحك! قطعت عنق صاحبك» يقوله مراراً. «إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله، ولا أزكى على الله أحداً»[٤].

---

(١) أبو داود (٤٩٦٩/٣٣٤/١٣)، الترمذي (٢٤١٧/٣٨٢/٣).

(٢) البخاري (٢٠٧٩/٣٠٩/٤)، مسلم (١٥٣٢/١١٦٤/٣)، أبو داود (٣٤٤٢/٣٣٠/٩)، الترمذي (١٢٦٤/٣٥٩/٢)، النسائي (٢٤٤/٧).

(٣) مسلم (٣٠٠٢/٢٢٩٧/٤)، الترمذي (٢٥٠٤/٢٦/٤)، أبو داود (٤٧٨٣/١٥٩/١٣).

(٤) البخاري (٢٦٦٢/٢٧٤/٥)، مسلم (٣٠٠٠/٢٢٩٦/٤)، أبو داود (٨٧٨٤/١٥٩/١٣)، أبن ماجه (٣٧٤٤/١٢٣٢/٢).

ومن كانت عنده شهادة فليؤدها بأمانة، وليتحر الصدق، وإن كانت الشهادة على نفسه أو على أقرب الناس إليه، قال تعالى: ﴿ يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (١). فإن الشهادة إما أن تكون شهادة صدق وإلا كانت شهادة زور، وقد قرنت شهادة الزور بالشرك، قال تعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٢).

وعن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً - قالوا بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». وجلس وكان متكئاً فقال: «ألا وقول الزور». قال: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» (٣).

---

(١) النساء ١٣٥.

(٢) الحج ٣٠.

(٣) البخاري (٥/٢٦١/٢٦٥٤) وهذا لفظه، مسلم (١/٩١/٨٧)، الترمذي (٣/٣٧٥/٢٤٠١).

ب ـ الصدق مع الله «الإخلاص»

جـ ـ الصدق في الرّغبة والرّهبة

معشر المسلمين: إن الصدق أنواع خمسة:

أ ـ الصدق مع عباد الله، وقد سبق.
ب ـ الصدق مع الله.
جـ ـ الصدق في الرّغبة والرّهبة.
د ـ الصدق مع رسول الله.
هـ ـ الصدق في العزم والوفاء به

ولقد تحدثنا عن الصدق مع عباد الله في الأخبار، ونحن الآن نتحدث عن الصدق مع الله فنقول: إن الصدق مع الله معناه إفراده سبحانه بالعبادة، فيجب على كل مسلم أن يقصد بكل عمل يعمله وجه الله، لا يبتغي بعمله أحداً مع الله، ولا يبتغي بها غير الله، فعبادة غير الله شرك وكذلك عبادة غير الله مع الله شرك، والواجب أن يعبد الله وحده، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

معشر المسلمين: إن إخلاص العبادة لله قد جاءت به آيات وأحاديث كثيرة:

أما الآيات فقد جاء فيها أمر من الله لرسوله بالإخلاص في عبادة الله،

وكذلك أمر المسلمون بما أمر به نبيهم: يقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَه الدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾(١). ثم يأمر الله رسوله أن يصدع بهذا الأمر، فيقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾(٢).

وبنفس الأمر الذي أُمر به النبي ﷺ يؤمر المؤمنون، يقول تعالى: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(٣). ويقول: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٤).

وبذلك الأمر نفسه أُمر السابقون، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (٥). ويقول تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(٦).

وأما الأحاديث فمنها: قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٧). ويقول ﷺ : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا:

(١) الزمر ٢، ٣.
(٢) الزمر ١١، ١٥.
(٣) غافر ١٤.
(٤) غافر ٦٥.
(٥) البينة ٥.
(٦) الشورى ١٣.
(٧) البخاري (١/٩/١)، مسلم (١٩٠٧/١٥١٥/٣)، أبو داود (٢١٨٦/٢٨٤/٦)، الترمذي (١٦٩٨/١٠٠/٣)، ابن ماجه (٤٢٢٧/١٤١٣/٢)، النسائي (١/٥٨).

وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»[١]. والرياء أن يبتغي الإنسان بعمله غير الله، كأن يبتغي مدح الناس، أو منزلة في قلوبهم، أو حظاً عندهم، ونحو ذلك من المقاصد السيئة التي يقصدها كثير من المرائين بأعمالهم.

معشر المسلمين: إن قيمة العمل في الإسلام ليست مرتبطة بعدده ولا بكثرته، وإنما قيمة العمل في الإسلام مرتبطة بالبواعث التي بعثت عليه، والدوافع التي دفعت إليه قد يجود الإنسان بماله فيطعم جائعاً، أو يكسو عارياً، أو يفعل شيئاً من أعمال البر والخير ولكن حين ينظر في الدوافع التي دفعته إلى هذا العطاء، يرى أنه ربما يكون قد أعطى ليستميل قلوب الناس إليه، أوْ رداً لجميل أسدي إليه، وكلا المسلكين كرم بعث عليه شعور الإنسان بنفسه، والإسلام لا يهتم بمثل هذا العطاء، ولا يعتبر الصدقة مقبولة عند الله إلا إذا تجردت النية من حظوظ النفس وشهواتها، وكان المتصدق مريداً بصدقته وجه الله فقط. وفي ذلك يقول ربنا حكاية عن الذين يطعمون الطعام على حبه: **﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾**[٢]

قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوها بألسنتهم ولكن الله اطلع على ذلك من قلوبهم فأثنى عليهم[٣]. وقال تعالى: **﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾**[٤].

معشر المسلمين: إن النية الصافية. إن النية الصالحة. إن النية الخالصة من شوائب الشرك ودرن الرياء. إن النية هذه تجعل الأعمال

---

(١) البغوي في «شرح السنة» (٤١٣٥/٣٢٣/١٤).
(٢) الإنسان ٩.
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٤٥٥).
(٤) الليل ١٤ ـ ٢١.

المباحة طاعة يثاب عليها فاعلها. إن النية الصادقة تجعل الملذات والشهوات طاعة وقربة يثاب المرء عليها وفي ذلك يقول ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة»[1]. أي أنَّ الرجل إذا جامع أهله يقصد بذلك أن يحصن فرجه ويعف نفسه، ويبتغي بذلك الجماع ما كتب الله له من الذرية الصالحة التي تخلفه في عبادة الله، حينئذٍ يكون في جماع الرجل أهله أجر وثواب من الله.

كما يبين النبي ﷺ أن النفقة على النفس إذا صحبتها النية الصالحة كانت صدقة وأن النفقة على العيال والزوجة إذا صحبتها النية الصالحة كانت صدقة، ولذا قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص وقد دخل يعوده، قال له: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك»[2]. وقال ﷺ: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة»[3]. فالعبرة بالاحتساب، فمن أنفق نفقة يحتسبها فهي له صدقة، ومن أنفق نفقة لا يحتسبها لم تكن له صدقة.

إن بعض الناس ربما يعملون أعمالاً هي من أعمال البر والخير، ولكن ربما عملوها غير محتسبين وغير قاصدين وجه الله، قد يمشي بعض الناس بالإصلاح بين الناس، قد يأمرون بالمعروف وقد يأمرون بالصدقة والنفقة في سبيل الله، وهذه الأعمال في نفسها أعمال خير، ولكن لا يؤجر عليها العامل إلا إذا ابتغى بها وجه الله. قال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[4] هذه الأعمال من أعمال الناس أعمالُ خير، ولكن لا أجر عليها إلا إذا احتسبها العامل وابتغى بها وجه الله، ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ

---

(١) مسلم (١٠٠٦/٦٩٧/٢).

(٢) البخاري (٥٦/١٣٦/١)، مسلم (١٦٢٨/١٢٥٠/٣)، ت (٢١٩٩/٢٩١/٣)، أبو داود (٢٨٤٧/٦٤/٨).

(٣) البخاري (٥٥/١٣٦/١)، مسلم (١٠٠٢/٦٩٥/٢).

(٤) النساء ١١٤.

﴿ مَرَضَاةِ اللَّهِ فَسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾[1].

بل لقد بلغ من فضل إخلاص النية والصدق فيها أن الرجل إذا أراد عمل خير ثم عجز عنه كتب له الأجر كاملاً غير ناقص، ولذا لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك غزوة العسرة، جاءه رجال فقراء لا يجدون ما ينفقون في سبيل الله، جاءوه يطلبون أن يحملهم من مال عنده، فقال ﷺ ما عندي ما أحملكم عليه فـ ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾[1]. فلما خرج رسول الله وتخلف هؤلاء الفقراء قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم المرض» وفي رواية «إلا شركوكم في الأجر». رواه مسلم[2]، وفي رواية البخاري: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة، ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حبسهم العذر»[3].

كما بلغ من فضيلة الصدق أن الرجل إذا سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه. كما جاء عن النبي ﷺ [4].

هذه هي فضيلة إخلاص النيات، النية الخالصة تبلغ صاحبها ثواب العاملين وإن لم يعمل لعجزه وضعفه. أما النية الفاسدة، النية المشوبة بالشرك والرياء، فإنها تحبط الأعمال وتردها على صاحبها، فإذا جاء يوم القيامة تبرأ الله منه ومن عمله، ولم يجد له عند الله أجراً ولا ثواباً. ولذلك لما فسدت نية بعض المصلين عادت صلاتهم صورة ميتة لا خير فيها، بل تستحيل إلى معصية تستجلب الويل، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾[5].

---

(١) التوبة ٩٢.
(٢) ١٩١١/١٥١٨/٣).
(٣) البخاري (٢٨٣٩/٤٦/٦).
(٤) مسلم (١٩٠٩/١٥١٧/٣)، أبو داود (١٥٠٦/٣٨٣/٤)، الترمذي (١٧٠٥/١٠٣/٣)، ابن ماجه (٢٧٩٧/٩٣٥/٢)، النسائي (٦/٣٦).
(٥) الماعون ٤، ٥، ٦.

والصـدقة التي يضـاعف الله أجرهـا إلى سبعمائـة ضعف أو يـزيـد، إذا فسدت نية المتصدق كانت صدقته هباء منثوراً، ولـذا ضرب الله مثلاً للمرائي بالصدقة كالحجر الصلب المكسو بـالتراب إذا نـزل عليه المـطر غسل التـراب عنـه فأظهـر حقيقته وظهـر أنه حجـر لا يصلح للإنبـات والزرع. قـال تعـالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

معشر المسلمين: إن أعظم أنـواع الصدقِ الصـدقُ مع الله ، والصـدق مع الله معناه إخلاص العبادة لله تعالى، وإفراده وحده بالعبـادة، وقصده وحـده بكـل عمـل يعمله المسلم، والـدليـل على أن الصـدق مـع الله هـو إخـلاص العبادة لله، أن رسول الله ﷺ قـال: «إن أول الناس يقضى يـوم القيامـة عليه: رجـل استشهد فـأتي به فعـرفه نعمـه فعرفهـا. قال: فمـا عملت فيها؟ قـال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال كذبت. ولكنك قـاتلت لأن يقال: جـريء، فقـد قيل، ثم أمـر بـه فسحب على وجهـه حتى ألقي في النـار. ورجـل تعلم العلم وعلمـه، وقرأ القـرآن، فأتى بـه فعرفه نعمه فعـرفهـا قـال: فمـا عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيـك القرآن. قـال: كذبت ولكنـك تعلمت ليقـال: عالم. وقـرأت القرآن ليقـال: قارىء. فقـد قيـل. ثم أمـر بـه فسحب على وجهـه حتى ألقي في النـار. ورجـل وسـع الله عليـه وأعـطاه من أصنـاف المال فـأتي به فعـرفه نعمـه فعرفهـا. قال فمـا عملت فيها؟ قـال: ما تـركت من سبيـل تحب أن ينفق فيهـا إلا أنفقت فيهـا لـك. قـال: كـذبت؛ ولكنـك فعلت ليقال: جـواد. فقد قيـل: ثم أمر بـه فسحب على وجهـه حتى ألقي في النار»[2].

---

(١) البقرة ٢٦٤.
(٢) مسلم (١٩٠٥/١٥١٣/٣).

فهؤلاء الثلاثة قد كذّبهم الله تعالى فيما أخبروا به، وتكذيب الله لهم ليس فيما ادعوه من الأعمال، فهم قد عملوا فعلاً، قد قُتل المقاتل، وتعلم العالم، وأنفق المنفق ولكن الله كذبهم في إخلاصهم، فقد عملوا ولكن لغير الله، ولذا كذبهم الله، وهذا هو الدليل على أن الصدق مع الله معناه الإخلاص لله في جميع ما يأتيه العبد من أعمال.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في السر والعلانية، وخشيته في الغيب والشهادة.

معشر المسلمين: ومما يتعلق بالصدق مع الله الصدق في الرغبة والرهبة، أي الصدق في الرغبة فيما عند الله من النعيم، والرهبة مما عنده من العذاب الأليم، فمن كان صادقاً في رغبته فيما عند الله فليعمل عملاً صالحاً يبلغه هذا النعيم، ومن كان صادقاً في خوفه مما عند الله من العذاب فليجتنب كل ما يقربه من عذاب الله، فمن فعل ذلك كان صادقاً في رغبته ورهبته، ومن رغب فيما عند الله ولم يأخذ بسببه، أو خاف مما عند الله ولم يترك سبباً يقربه مما يحذر إلا وأتاه، فهذا غير صادق في رغبته ورهبته. ولذا قيل:

ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها　　إن السفينة لا تجري على اليبس

وقال بعضهم: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها طالباً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى منها هارباً. فماذا تنتظرون؟ وما عساكم ترجون. الموت فإنه أول وارد عليكم من الله بخير أو شر، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً.

د ـ الصدق مع رسول الله

عرفنا أن الصدق مع الله معناه إخلاص العبادة لله عزَّ وجل، وإرادة وجهه بكل عمل.

أما الصدق مع رسول الله فمعناه: تجريد المتابعة له ﷺ بحيث يكون هو وحده المثل الأعلى الذي يقتدى به، ويقتفى أثره في السير إلى الله عزَّ وجل، فإنه كما قال الإمام الجنيد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى أثر رسول الله، فإن الله قال لرسوله: وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، ما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك(١).

معشر المسلمين: إن الله عزَّ وجل يقول: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** ﴾(٢).

فرسول الله ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغنا أوامر الله، وتعليمنا كيف يُعبد الله عزَّ وجل، فإنه لا بد للخلق من واسطة بينهم وبين الله لمعرفة كيف يعبد الله، ولكن الخلق ليسوا بحاجة لاتخاذ واسطة بينهم

(١) طريق الهجرتين ص ٧ .
(٢) آل عمران ١٦٤ .

وبين الله في دعائه والتقرب إليه، لا واسطة بين المخلوقين وخالقهم في دعائه وسؤاله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(١) ولكن لا بد من واسطة بين العباد وبين الله عزَّ وجل لبيان كيف يعبدون الله ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾(٢). ولذا بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين كما قال ربنا ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾(٣). وقد بعث الله فينا خير خلقه، وسيد رسله محمداً ﷺ، وأوجب علينا طاعته واتباعه في كل ما يأمر به أو ينهى عنه. قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾(٤). وقال النبي ﷺ: «دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» (٥).

وقد جعل الله تعالى طاعة الرسول واتباعه عنوان محبته، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ ﴾(٦). فمن كان لمحمد متبعاً كان لله محباً، والعكس بالعكس من لم يكن لمحمد متبعاً لم يكن لله محباً. ومحبة الله ليست مجرد كلمات تنطق ولا حروف تتمتم بها الألسنة، وليست مجرد شعارات ترفع، إنما محبة الله طاعته وطاعة من أمر بطاعته.

ولذا قال القائل:

---

(١) البقرة ١٨٦.
(٢) الشورى ٥١.
(٣) النساء ١٦٥.
(٤) الحشر ٧.
(٥) البخاري (١٣/٢٥١/٧٢٨٨)، مسلم (٢/٩٧٥/١٣٣٧)، النسائي (٣/١١٠).
(٦) آل عمران ٣١، ٣٢.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا لعمري في القياس شنيع
لو كنت صادقاً في حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

كما جعل الله سبحانه طاعة رسوله طاعة له، فقال: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾(١). وجعل الله لرسوله حق الطاعة المطلقة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُم ﴾(٢). فكرر الأمر بالطاعة لرسوله دون أولي الأمر، مما يدل على أن لرسول الله الطاعة المطلقة، لأنه لا يأمر بالمعصية فيجب أن يطاع حتى فيما لم يرد في القرآن، لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ولذا قال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»(٣).

أما أولو الأمر فإنما يطاعون في الطاعة، فإذا أمروا بالمعصية فلا طاعة لهم، وهذا هو سر تكرير الفعل «أطيعوا» مع الرسول دون أولي الأمر.

كما جعل الله سبحانه التحاكم إلى رسوله ﷺ في كل ما يجدّ من قضايا ويقع من أحداث عنوان الإيمان، فقال تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾(٤).

كما أمر سبحانه عباده المؤمنين إذا اختلفوا في شيء أن يردوه إلى الله ورسوله، وجعل ذلك عنوان الإيمان، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾(٢). فالواجب على المؤمنين حين يختلفون في أمر من الأمور أو

---

(١) النساء ٨٠.
(٢) النساء ٥٩.
(٣) أبو داود (٤٥٨٠/٣٥٤/١٢).
(٤) النساء ٦٥.

مسألة من المسائل أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله، فيكون الكتاب والسنة هما الحاكم بينهم فيما هم فيه مختلفون.

وقد جعل الله تعالى طاعة رسوله واتّباعه موجباً للهداية التي هي الغاية التي شمر لها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون، هذه الهداية التي يتوجه كل مسلم بسؤال الله إياها في كل ركعة من ركعات الصلاة ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾(1) هذه الهداية جعل الله سببها طاعة رسوله واتباعه، فقال تعالى: ﴿ **وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾(2). وقال: ﴿ **وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾(3).

ففهم من الآيتين أن عصيان الرسول ومخالفة أمره ضلال وشقاء، وغيّ وهوى، ولقد كان هذا الفهم ذائعاً في أصحاب رسول الله، معلوماً لديهم، ولذا أثر عن ابن مسعود قوله:

«من سره أن يلقى الله تعالى غدا مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، - أي في المساجد - ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِم تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ. لَيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾(4). من سره أن يلقى الله تعالى غدا مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف(5).

---

(1) الفاتحة ٦.
(2) النور ٥٤.
(3) الأعراف ١٥٨.
(4) النور **٣٦ - ٣٩**.
(5) سبق تخريجه.

فأين المسلمون من هذه السنة؟ وأين طاعة المسلمين لرسولهم الذي أمرهم بالمحافظة على الجماعة؟ وأين اتّباع المسلمين لرسولهم الذي خرج للصلاة في مرض موته بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض[١]، لا يقوى على رفعهما؟ أين الأصحاء؟ أين الأقوياء؟ أين ذوو الصحة والعافية؟ أين الشباب؟ أين الشيوخ؟ أين المسلمون من تعمير بيوت الله بالمحافظة على سنة رسول الله وشهود الجماعة فيها؟ لا سيما العشاء والفجر، اللذين جعل الرسولُ المتخلف عنهما منافقاً؟ يقول ﷺ : «ليس صلاة أثقل على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا. ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار»[٢]. فالله الله عباد الله، اتقوا الله في أنفسكم ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِين** ﴾[٣]. حافظوا على الجماعة فإن الجماعة من سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ﴿ **وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾[٤].

معشر المسلمين: لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يقتفي أصحابه أثره ويهتدوا بهديه، ويقتدوا بسنته، لا يزيغون عنها يميناً ولا شمالاً، ولذا كان كثيراً ما ينصحهم بطاعته والتمسك بسنته، وعدم الزيادة عليها أو النقصان منها.

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا يا رسول الله. كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن

---

(١) البخاري (٢/١٥١/٦٦٤)، مسلم (٤١٨ - ٩٥ - /١/٣١٣).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) البقرة ٢٣٨.
(٤) النور ٥٤.

تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: «صبحكم ومساكم». ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين». ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[2].

ولقد كان رسول الله ﷺ حرباً على كل من خالف هديه:

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ. فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر. وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم. فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3].

وعن سلمة بن عمرو بن الأكوع رضي الله عنه: أن رجلاً أكل عند رسول الله بشماله. فقال: «كل بيمينك». قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعت». ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه[4].

وكذلك كان أصحاب النبي ﷺ حرباً على كل من خالف هدى رسول الله:

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) مسلم (**٢/٥٩٢/٨٦٧**)، النسائي (٣/١٨٨).
(٣) البخاري (٥٠٦٣/١٠٤/٩).
(٤) مسلم (٢٠٢١/١٥٩٩/٣).

الخذف - (وهو رمي الحصى بالسبابة والإبهام) - وقال: «إنه لا يقتل الصيد ولا ينكأ العدو، وإنه يفقأ العين ويكسر السنّ. فرأى عبد الله قريباً له يخذف فنهاه، ثم عاد. فقال عبد الله: أحدثك أن رسول الله ﷺ نهى عنه ثم عدت تخذف، لا أكلمك أبداً»[1].

وعن ابن مسعود أنه بلغه أن قوماً يجلسون في المسجد حلقاً ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصا، فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة. فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة. ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة. فأتاهم فقال: ما هذا الذي تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصا نعدّ به التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء. والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة أهدى من ملة محمد أو مفتتحوا باب ضلالة. قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير. قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه»[2].

فيا معشر المسلمين: إن الصدق مع رسول الله معناه تجريد المتابعة له، بحيث يقتدى به وحده، ويقتفى أثره وحده، فلا يقتدى بغيره، ولا يستن بسنة غيره، ولا يتبع غيره إلا إذا كان في اتّباعه اتباعٌ لرسول الله ﷺ. فعليكم بالسنة، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

واعلموا عباد الله أن الأعمال لا تكون مقبولة عند الله حتى يتوفر فيها شرطان: الإخلاص لله، وموافقة هدي رسول الله، فإذا توفر هذان الشرطان كان العمل مقبولاً، وإن فقدا أو أحدهما كان العمل مردوداً. وبذلك صرح القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا

---

(١) البخاري (٥٤٧٩/٦٠٧/٩)، مسلم (١٩٥٤/١٥٤٧/٣).
(٢) الدّارمي (٢١٠/٦٠/١).

﴿يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً﴾[1]. وقال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[2].

وقال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»[3]. وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[4].

فأخلصوا لله نياتكم، واتبعوا في أعمالكم سنة نبيكم، وعلى كل مسلم قبل أن يعمل أن يسأل نفسه هذين السؤالين: لم؟ وكيف؟ لم يعمل؟ وكيف يعمل؟ فإن كان يعلم أنه يعمل لله، وهو موافق لهدى رسول الله فليقدم على هذا العمل، وإلا فليرح نفسه من عناء في عمل يذهب هباء منثوراً.

(١) الكهف ١١٠.
(٢) سبق.
(٣) البخاري (٥/٣٠١/٢٦٩٧)، مسلم (٣/١٣٤٣/١٧١٨)، أبو داود (١٢/٣٥٨/٤٥٨٢)، ابن ماجه (١/٧/١٤).
(٤) مسلم (٣/١٣٤٣/١٧١٨)، البخاري تعليقاً (٤/٣٥٥). بزيادة في أوله.

هـ ـ الصدق في العزم والوفاء به

كثيراً ما يأخذ الإنسان على نفسه عهوداً، ويضرب مع غيره وعوداً، فتارة يفي بعهده، ويصدق في وعده، وتارة ينقض عهده، ويخلف وعده. فما السر وراء ذلك؟ وما السبب؟

السر وراء ذلك معشر المسلمين يعود إلى حالة عزم الإنسان حين يعاهد أو يَعِد ، فإذا كان صادقاً في عزمه على الوفاء بما عاهد عليه، أو فيما وعد به، حمله صدقه في عزمه على الوفاء بما عاهد عليه أو وعد به. وإن كان غير صادق في عزمه لم يف بعهده، ولم يصدق في وعده. وهذا شيء لعله مجرب مع كل منا، فأنت حين تعد أخاك وعداً، أو تأخذ على نفسك عهداً، إن كنت فيما بينك وبين نفسك صادقاً في عزمك على الوفاء بعهدك ووعدك وفيت بعهدك ووعدك، وإن كنت حين عاهدت أو وعدت غير صادق في عزمك لم تف بعهدك ووعدك. وأقرب مثال على ذلك: أن الرجل منا إذا نام من الليل عازماً على أن يصلي الفجر في جماعة بعثه الله من نومه فصلى الفجر في الجماعة، وإن نام غير عازم أو عازماً عزماً غير صادق فيه لم يقم لصلاة الفجر. هذا شيء لا ينكره إلا مكابر.

من هنا وجب على المسلم أن يحترم عهده وأن يصدق في وعده ، فإن الوفاء بالعهد والصدق في الوعد جعله الله تعالى من صفات المتقين،

فقـال تعالى : ﴿ لَيْسَ البِـرَّ أَنْ تُوَلُّـوا وُجُوهَكُمْ قِبَـلَ المَشْرِقِ وَالمَغْـرِبِ وَلٰكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ والمَـلائِكَةِ والكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَىٰ حُبِّـهِ ذَوِي القُرْبَىٰ وَاليَتَـامَىٰ والمَساكِينَ وابْنَ السَّبِيـلِ والسَّائِلِينَ وَفِى الـرِّقَـابِ وأَقَـامَ الصَّلاةَ وآتَى الـزَّكَاةَ والمُـوفُونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذَا عَـاهَـدُوا وَالصَّـابِـرِينَ فِي البَـأْسَـاءِ والضَّـرَّاءِ وَحِينَ البَـأْسِ أُولٰئِـكَ الَّـذِينَ صَـدَقُـوا وأُولٰئِـكَ هُمُ المُتَّقُـونَ ﴾[1]. وقد أمـر الله تعالى عبـاده المؤمنين أن يحترمـوا عهـودهم وأن يفـوا بها، فقـال تعالى : ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقُـودِ ﴾[2]. وقـال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُم وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْـدَ تَوكِيـدِهَا وَقَـد جَعَلْتُم اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيـلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفعَلُون ﴾[3]. وقـال: ﴿ وَأَوْفُوا بِـالْعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾[4].

ونهى الله تعـالى عن نقض العهود وتـوعّـد على نقضهـا، فقـال: ﴿ وَلاَ تَشْتَـرُوا بِعَهْـدِ اللَّهِ ثَمَنَـاً قَلِيـلاً إِنَّمَـا عِنْـدَ اللهِ هُـوَ خَيـرٌ لَّكُمْ إِنْ كُـنْتُـمْ تَعلَمُـونَ ﴾[5]. وقال: ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ يَشْتَـرُونَ بِعَهْـدِ اللَّهِ وَأَيْمَـانِهِمْ ثَمَنَـاً قَلِيـلاً أُولٰئِـكَ لاَ خَـلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِـرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْـظُـرُ إِلَيْهِمْ يَـوْمَ القِيَامَةِ ولاَ يُزَكِّيهِم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[6].

ولقـد ذكر الله لنـا في كتابـه العزيـز قصصاً، وحكى لنـا وقائـع تفيـد أن الإنسان إذا عاهد وهو صـادق في عهده حمله صـدقه على الـوفاء، وإذا عـاهد غيـر صادق لا يمكن أن يفيَ أبـداً، فيورثـه نقض عهده نفـاقاً في قلبـه إلى يوم القيامة.

أمـا عن الأول: فقد قـال تعـالى: ﴿ مِّنَ المُؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُـوا مَـا

(١) البقرة ١٧٧.
(٢) المائدة ١.
(٣) النحل ٩١.
(٤) الإسراء ٣٤.
(٥) النحل ٩٥.
(٦) آل عمران ٧٧.

عَــاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَـهُ وَمِنْهُم مَّنْ يَنْتَـظِرُ وَمَـا بَـدَّلُـوا تَبْدِيلا ﴾[1].

عن أنس رضي الله عنــه قـال: غـاب عمي أنس بن النضــر رضي الله عنــه عن قتـال بــدر، فقــال يــا رســول الله: غبتُ عن أول قتــال قــاتلت المشـركين، لئن أشهدني الله قتـال المشركين ليـرين الله ما أصنـع. فلما كـان يوم أحد انكشف المسلمـون فقال: اللهم أعتـذر إليك ممـا صنع هؤلاء ـ يعني أصحـابه ـ وأبـرأ إليك ممّا صنع هؤلاء ـ يعني المشـركـين، ثم تقـدم فـاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعـد بن معاذ، الجنة ورب الكعبة إني أجـد ريحها من دون أحـد. قـال سعـد: فمـا استـطعت يـا رسـول الله مـا صنـع! قـال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بـرمح أو رميـة بسهم ووجدنـاه قد قتل ومثّل به المشركون، فمـا عرفـه أحد إلا أختـه ببنانه. قال أنس: كنـا نـرى أو نـظن أن هـذه الآيـة نـزلت فيـه وفي أشبـاهـه ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عليهِ ﴾ الآية[2].

وهكـذا يصنع الصـدق في العزم بـأهله، مـا من رجـل أعـطى عهـداً أو ضرب وعداً، وكان صادقاً في عهده ووعده إلا وفّى لا محالة.

وما من رجل أعطى عهداً أو ضرب وعداً وهـو غير عـازم على الوفـاء إلا نقض عهده وأخلف وعده، وهذا ما ذكـره الله في سورة التـوبة، هـذه السورة التي تسمى الفـاضحـة، لأنهـا فضحت المنـافقين وهتكت أســرارهم، يقـول تعالى في سورة التوبة:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَــاهَـدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَــانَـا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّـدَّقَنَّ وَلَنَكُـونَنَّ مِنَ الصَّـالِحِينَ. فَلَمَّا آتَـاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُـونَ. فَـأَعْقَبَهُمْ نِفَـاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَـوْمِ يَلْقَـوْنَـهُ بِمَـا أَخْلَفُـوا اللَّهَ مَـا وَعَـدُوهُ وَبِمَـا كَـانُـوا

(١) الأحزاب ٢٣.
(٢) البخاري (٦/٢١/٢٨٠٥)، مسلم (٣/١٥١٢/١٩٠٣).

يَكْذِبُونَ. أَلَمْ يَعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الغُيُوبِ﴾(1).

معشر المسلمين: إن هناك قصة شائعة في عوام المسلمين تتعلق بهذه الآيات، أهي قصة حمامة المسجد، الذي سموه - وكذبوا - ثعلبة بن حاطب الأنصاري، خلاصة هذه القصة: أن ثعلبة كان رجلاً فقيراً، وكان ملازماً رسول الله والمسجد، فطمع في الدنيا، فسأل رسول الله أن يدعو له أن يوسع الله عليه، فقال له رسول الله: يا ثعلبة قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. فقال يا رسول الله، ادع لي، ولئن آتاني الله مالاً لأصدقن ولأكونن من الصالحين، فدعا رسول الله له، فرزقه الله غنمات، فكان يرعاها وينزل إلى المسجد للصلاة حتى كثرت وضاق بها الوادي فخرج إلى البادية وترك الجمعة والجماعة... إلى آخر ما هو معروف في هذه القصة. ونحن حين نذكرها لا نذكرها تأييداً لها وتثبيتاً، إنما نذكرها لننفي عن صحابي جليل من أصحاب رسول الله ما نسب إليه ظلماً وبهتاناً.

إن ثعلبة بن حاطب مِنْ أجلِّ أصحاب رسول الله، شهد مع رسول الله بدراً وأحداً(2)، ورسول الله ﷺ لما جيء بالكتاب الذي كان بعثه حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بما عزم عليه رسول الله من فتح مكة، لما جيء رسول الله بالكتاب، أحضر حاطب بن أبي بلتعة وسأله: ما حملك على ما صنعت يا حاطب؟ فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «أليس قد شهد بدراً؟ وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؟(3).

والشاهد قوله ﷺ: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». إن ثعلبة بن حاطب الأنصاري الذي

---

(1) التوبة ٧٥ - ٧٨.
(2) طبقات ابن سعد (٣/٤٦٠).
(3) مسلم (٤/١٩٤١/٢٤٩٤).

تنسب إليه هذه القصة المختلقة قد شهد بدراً، فقد دخل في هذا الوعد، فكيف يقال فيه أنه نافق وخرج عن الدين؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

إذا أزحنا هذه الشبهة أو هذه التهمة عن هذا الصحابي الجليل، فلنعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالعبرة حاصلة، والآيات واضحة، ومعناها أن رجلاً سأل الله أن يوسع عليه على أن يتصدق ويكون من الصالحين: **﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾**.

معشر المسلمين: من الواجب على كل مسلم إذا أخذ على نفسه عهداً أن يفي به، وإذا ضرب مع غيره موعداً أن يلتزم به، فإن الغدر ونقض العهد، وعدم الالتزام بالوعد من شيم المنافقين وليس من شيم المتقين. عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1].

ومن الوفاء المحمود أن يتذكر الإنسان ماضيه، فإن كان فقيراً فأغناه الله، أو مريضاً فشفاه الله، فمن الوفاء أن يتذكر ماضيه، وأن لا يجعل بينه وبين هذا الماضي حجاباً، ويزعم أنه لم يكن يوماً فقيراً ولا مريضاً، فإن هذا غدر لا وفاء، وآيات التوبة التي ذكرناها تنبىء عن ذلك، وعن شؤم الغدر. وقد جاء في الحديث شيء من هذا:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم

---

(١) البخاري (١/٨٩/٣٤)، مسلم (١/٧٨/٥٨)، أبو داود (١٢/٤٤٣/٤٦٦٣)، الترمذي (٤/١٣٠/٢٧٦٨)، النسائي (٨/١١٦).

ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لوناً حسناً. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملاً. قال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله عليَّ بصري فأبصر الناس. فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك، قال: الغنم. فأعطي شاة والداً. فأنتج هذان وولّد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ به في سفري. فقال: الحقوق كثيرة. فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله؟! فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر. فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فرد الله إليَّ بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزَّ وجل. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»[1].

(١) البخاري (٣٤٦٤/٥٠٠/٦)، مسلم (٢٩٦٤/٢٢٧٥/٤).

الصفات [٩، ١٠، ١١]:
القنوت، وقيام الليل، والاستغفار بالأسحار.

معشر المسلمين:

الصفة التاسعة من صفات المتقين هي القنوت لله، والصفة العاشرة هي قيام الليل والصفة الحادية عشرة هي الاستغفار بالأسحار.

أما الصفتان التاسعة والحادية عشرة فهما مذكورتان في آية آل عمران ﴿ **الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ والمُنْفِقِينَ والمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾[1].

أما الصفة العاشرة فهي مذكورة في آيات كثيرة، منها قول الله في سورة الذاريات: ﴿ **إِنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ، كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون** ﴾[2].

وفي سورة الفرقان يقول ربنا ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً. وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً** ﴾[3].

---

(١) آل عمران ١٧.
(٢) الذاريات ١٥ ـ ١٨.
(٣) الفرقان ٦٣، ٦٤.

معشر الإخوة: القنوت الذي هو صفة من صفات المتقين معناه الطاعة والخضوع والخشوع لله عزَّ وجل. والقنوت من صفات كل المخلوقات، كل مخلوق قانت لله، خاضع له، خاشع مطيع، إما طوعاً وإما كرهاً. قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾(1). وقال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ** ﴾(2). وقنوت المخلوقات لله إنما هو بمعنى الخضوع للسنن الكونية من الإحياء والإماتة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وغير ذلك من سنن الله الكونية في عباده، فكل من في السموات والأرض خاضع لله مطيع، بمعنى أنه لا يستطيع أن يرد قضاء الله فيه، فقضاء الله نافذ في المسلم والكافر على حدٍّ سواء لأنه سبحانه لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون** ﴾(3).

وهذه الطاعة الجبرية من جميع المخلوقات لا يمدح عليها خلق من خلق الله، إنما يمدح من أطاع الله عن رضا وعن قناعة، وعن إرادة منه، أما الطاعة الجبرية فهي كإسلام من في السموات والأرض كلهم لله، كما قال تعالى: ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُون** ﴾(4). فكل المخلوقات أسلمت لربها، كما سجدت له، وكما تُسبّح بحمده كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ**

---

(1) البقرة ١١٦، ١١٧.
(2) الروم ٢٥، ٢٦.
(3) يٓس ٨٢.
(4) آل عمران ٨٣.

وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾[1]. وكما قال تعالى: ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾[2].

فهذا الإسلام والسجود والتسبيح الجبري لا يمدح عليه صاحبه ولا يثاب، لأنه عن غير طواعية منه، وإنما يمدح من أسلم طوعاً، وسجد خضوعاً، وسبح حمداً.

ومن هنا كان القنوت صفة مدح للمتقين لأنهم قنتوا لربهم عن طواعية ورضى واستسلام، ولذا استحقوا الأجر والثواب من الله، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾[3].

وقد أثنى الله على خليله إبراهيم فقال: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾[4]. ولما تظاهرت نساء النبي عليه هددهن الله بالطلاق، وأن يبدل نبيه أزواجاً خيراً منهن فقال تعالى: ﴿ **عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً** ﴾[5].

وقد جعل الله القنوت من صفات الصالحات، قال تعالى: ﴿ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ﴾[6]. وأمر به مريم فقال: ﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾[7].

---

(١) الحج ١٨.
(٢) الإسراء ٤٤.
(٣) الأحزاب ٣٥.
(٤) النحل ١٢٠.
(٥) التحريم ٥.
(٦) النساء ٣٤.
(٧) آل عمران ٤٣.

فعلم من هذا أن القنوت الذي هو من صفات المتقين معناه دوام الطاعة لله، **فالمتقون دائماً مطيعون «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»** على حسب الاستطاعة، فإن زلت بهم قدم بادروا بالتوبة والإنابة والاستغفار.

ومن طاعتهم لله حرصهم على قيام الليل، فإذا أوى الناس إلى فرشهم، وخلا كل حبيب بحبيبه هبَّ هؤلاء المتقون قياماً بين يدي الله يرجون رحمته ويخافون عذابه.

إن قيام الليل سفينة المتقين إلى رضوان الله والجنة، فمن أراد الوصول إلى رضوان الله والجنة فليقم الليل. إن كثيراً من المسلمين لا يعرفون قيام الليل إلا في رمضان فقط فإذا انسلخ رمضان عادوا إلى ما كانوا عليه قبل رمضان من ترك القيام.

وقيام الليل سنة في كل ليلة، ولقد كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت له عائشة: لم تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

وقد رغب النبي ﷺ أمته في قيام الليل، فروي عنه ﷺ أنه كان من أول ما قاله حين وصل المدينة «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[2].
وقال ﷺ: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». قيل لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[3].

كما حث النبي ﷺ الأزواج أن يتعاونوا على قيام الليل، فمن استيقظ

---

(١) البخاري (٤٨٣٧/٥٨٤/٨)، مسلم (٢٨٢٠/٢١٧٢/٤).
(٢) ابن ماجه (٣٢٥١/١٠٨٣/٢)، وهذا لفظه، الترمذي (٢٦٠٣/٦٥/٤) وليس عنده الجملة الثالثة.
(٣) الترمذي (٢٠٥٠/٢٣٨/٣).

منهم أيقظ الآخر، فقال ﷺ : «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»[1]. وقال ﷺ : «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا ـ أو صلى ركعتين جميعاً كتبا في الذاكرين والذاكرات»[2].

فاحرص يا عبد الله على هذه الصلاة، التي هي أفضل الصلاة بعد الفريضة، كما في الحديث عن النبي ﷺ : «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[3]. واعلم يا عبد الله أن الصلاة بالليل تجوز من بعد صلاة العشاء حتى مطلع الفجر، وأفضل الأوقات الثلث الأخير من الليل، لأنه وقت نزول الرب سبحانه، كما في الحديث: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»[4].

معشر المسلمين: إن المتقين قوم علموا أنهم مهما اجتهدوا في طاعة الله، فهم مقصرون في حق الله، فلذلك تراهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً، حتى إذا كان وقت السحر جلسوا يستغفرون الله وكأنهم لم يقضوا ليلهم في طاعة، لشعورهم أن أعمالهم لا تكافىء شكر نعمة من نعم الله.

وقد أمرنا نحن المسلمين بالاستغفار عقب الطاعات، لأننا مهما اجتهدنا في تحسين ما نقوم به من أعمال فالتقصير حاصل، ولذا شرع

---

(١) أبو داود (١٢٩٤/١٩٣/٤)، ابن ماجه (١٣٣٦/٤٢٤/١)، النسائي (٢٠٥/٣).
(٢) أبو داود (١٢٩٥/١٩٤/٤)، ابن ماجه (١٣٣٥/٤٢٣/١).
(٣) مسلم (١١٦٣/٨٢١/٢)، أبو داود (٢٤١٢/٨٢/٧)، الترمذي (٤٣٦/٢٧٤/١)، النسائي (٢٠٧/٣).
(٤) البخاري (١١٤٥/٢٩/٣)، مسلم (٧٥٨/٥٢١/١)، الترمذي (٣٥٦٥/١٨٨/٥)، أبو داود (١٣٠١/١٩٩/٤).

للمتوضيء أن يقول إذا فرغ من وضوئه: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله(١)، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين(٢)، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك(٣).

وشرع للمصلي إذا صلى أن يقول عقب السلام: أستغفر الله. أستغفر الله. أستغفر الله(٤). وشرع للحاج بعد الإفاضة أن يستغفر الله، ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّن عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ. ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥).

وفي آخر سورة المزمل يقول ربنا ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٦).

وعلى سبيل الإجمال فقد أمر الله تعالى بالاستقامة وهي جماع الخير، وأمر بالاستغفار معها فقال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾(٧).

فأنت يا عبد الله، مهما اجتهدت فأنت مقصر، ومهما قدمت من خير فأنت مقصر، فإياك والعجب بأعمالك، وإياك والغرور، انْسَ حسناتك فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، واعدد سيئاتك لتتوب منها، كما قال ابن مسعود «أما

(١) مسلم (٢٣٤/٢٠٩/١-).
(٢) الترمذي (٥٥/٣٨/١).
(٣) الحاكم (٥٦٤/١).
(٤) مسلم (٥٩١/٤١٤/١)، الترمذي (٢٩٩/١٨٤/١)، أبو داود (١٤٩٩/٣٧٧/٤)، ابن ماجه (٩٢٨/٣٠٠/١)، النسائي (٦٨/٣).
(٥) البقرة ١٩٩.
(٦) المزمل ٢٠.
(٧) فصلت ٦.

تعدون سيئاتكم، وأنا أكفل لكم ألا يضيع من حسناتكم شيء»[1].

وأخيراً: بم يستعان على قيام الليل؟ ما هي الأسباب التي يتيسر بها قيام الليل؟

الجواب: يستعان على قيام الليل بترك السهر بعد العشاء، فقد كان رسول الله ﷺ يكره النوم قبل العشاء والسمر بعدها[2].

وأن يعقد الإنسان نيته على قيام الليل إذا أوى إلى فراشه، فمن نام عازماً على قيام الليل فقام فله أجر قيامه، وإن غلبته عينه كتب له أجره أيضاً، كما في الحديث عن النبي ﷺ : «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه»[3].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) البخاري (٢/٤٩/٥٦٨)، مسلم (٢/٤٤٧/٦٤٧)، أبو داود (٢/٦٩/٣٩٤)، ابن ماجه (١/٢٢٩/٧٠١)، النسائي (١/٢٤٦).
(٣) ابن حبان في الزوائد (١٦٧/٦٤٠).

الصفة الثانية عشرة: الحلم

الحلم صفة من أعظم صفات الرب عزّ وجل التي يعامل بها عباده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُما مِن أَحَدٍ مِّن بَعدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾[1].

والحلم صفة من صفات المرسلين، حتى لا تطيش بهم سفاهة السفهاء، ولا جهل الجاهلين، وقد وصف الله بعض رسله بالحلم، فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[2]. وبشّره بولد حليم وهو إسماعيل عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيم ﴾[3].

ويدل على حلم الأنبياء ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف عما لقيه الأنبياء من الأذى والاضطهاد، فقابلوا كل ذلك بالحلم والصفح الجميل. يقول تعالى عن نوح عليه السلام أن الملأ من قومه قالوا له: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ فما زاد نوح في جوابه عليهم على أن قال ﴿ لَيس بي ضَلاَلة وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمينَ ﴾[4]. وكذلك هود عليه السلام لما قال له

(١) فاطر ٤١.
(٢) التوبة ١١٤.
(٣) الصافات ٩٩ - ١٠١.
(٤) الأعراف ٦٠، ٦١.

الملأ من قومه: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ لم يزد في رده عليهم على قوله: ﴿ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾[(1)].

وقد قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتِ لَهُم وَلَو كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانفضُّوا مِنْ حَولِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِر لَهُم وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾[(2)].

ولقد كان ﷺ يُؤذَىٰ ويسمع سبّه بأذنه وربما نقل إليه فما يزيد على قوله: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[(3)].

فإذا كان الحلم من صفات الله، ومن صفات المرسلين، فهو أيضاً من صفات المتقين قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّمٰواتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبّ المُحْسِنِينَ ﴾[(4)].

معشر الإخوة: يقولون الإنسان مدني بطبعه، يحب الخلطة وينفر من العزلة، لا يحب الإنسان أن يعتزل الناس وينأى عنهم، بل إنه بطبعه يحب العشرة والمخالطة، والإسلام يقر الإنسان على هذا، فإن الإسلام لا يعارض الفطرة التي فطر الله العباد عليها، ولكن الإسلام يحث أبناءه على الاختلاط بالصالحين ومعاشرتهم، وينهى عن مخالطة غير الصالحين، لأن الرجل على دين خليله. ولذا قال ﷺ : «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»[(5)].

ذلك أن الله أمر عباده المؤمنين أن يتعاونوا على البر والتقوى، ولا

---

(١) الأعراف ٦٦، ٦٧.
(٢) آل عمران ١٥٩.
(٣) البخاري (٦٠٥٩/٤٧٥/١٠)، مسلم (١٠٦٢/٧٣٩/٢).
(٤) آل عمران ١٣٣، ١٣٤.
(٥) أبو داود (٤٨١١/١٧٨/١٣)، الترمذي (٢٥٠٦/٢٧/٤).

يمكن أن يعينك فاسق، ومن هنا وجب على كل مسلم أن ينتقي من يعاشر، وأن يصطفي من يخالط، فإذا اختار لصحبته الصالحين فعليه أن يعلم أن هذه الصحبة لا يمكن أن تدوم إذا لم تقم على أساس من الحلم والعفو والصفح، فكم من رجال أقاموا علاقات فيما بينهم فانقطعت هذه العلاقات لأتفه الأسباب، إن الإنسان لا يمكن أبداً أن يكون معصوماً من الخطأ؛ وما دام الأمر كذلك فعلى الإخوان أن يغضوا أبصارهم عن زلات إخوانهم التي ربما تكون غير مقصودة، وعليهم أن يعفوا عن سيئاتهم، وأن يحلموا عليهم إذا جهلوا.

ومن هنا حث الله عباده على الحلم والعفو والصفح الجميل والإحسان إلى المسيء، وجعل هذه الأخلاق من أخلاق المتقين، فقال تعالى: **﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ ﴾**(1). وبين سبحانه أن هذه درجة رفيعة لا يبلغها إلا ذو حظ عظيم، فقال تعالى: **﴿ وَلَا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَينَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾**(2).

معشر الإخوة: إن الإنسان إذا خالط الناس وعاشرهم لم يسلم من شرهم وأذاهم، فعليه أن يوطن نفسه على الصبر والحلم والعفو عما يناله من أذى، ولذا قال ﷺ «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(3). ولا يمكن الصبر على أذى الناس إلا بالحلم، والحلم ضد الغضب، ولذا قال النبي ﷺ لمن استوصاه: «لا تغضب» فردد مراراً، فقال: «لا تغضب»(4).

(1) آل عمران ١٣٣، ١٣٤.
(2) فصلت ٣٤، ٣٥.
(3) ابن ماجه (٤٠٣٢/١٣٣٨/٢)، الترمذي (٢٦٢٥/٧٣/٤).
(4) البخاري (٦١١٦/٥١٩/١٠)، الترمذي (٢٠٨٩/٢٥٠/٣).

ذلك أن الرجل إذا غضب فَعَلَ ما لا تحمد عقباه، وتكلم بما يندم عليه، ومن هنا وجب على كل مسلم إذا استثير أن لا يغضب. والغضب شيء فطري لا يملكه الإنسان إذا وُجدت أسبابه، لكن المراد بنهي النبي ﷺ: «لا تغضب» أي إذا غضبت فلا تنفذ غضبك فيمن أغضبك، واكظم غيظك رجاء ما وعدك الله به على لسان رسوله ﷺ حيث قال «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء»[1].

ومن كظم غيظه فعليه أن يجتهد على ذهاب هذا الغيظ حتى لا يظل دفيناً في صدره، خشية أن يثيره الشيطان يوماً ما، فيحمله على الانتقام لنفسه، فعليه أن يشفي صدره بالعفو عمن أساء إليه ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ فإذا ارتقى درجة أعلى فعليه إن استطاع أن يحسن إلى من أساء إليه ﴿**واللَّهُ يُحبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

معشر الإخوة: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسوَة حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾[2]. ولقد حُفظ لنا من سيرته ﷺ أنه ما انتقم لنفسه قط، ولا غضب لأذى يلحقه في شخصه، وإنما كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله[3]. ولقد كان ﷺ لا يزيده جهل الجاهل إلا حلماً:

عن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم

---

(١) أبو داود (٤٧٥٦/١٣٥/١٣)، الترمذي (٢٠٩٠/٢٥١/٣)، ابن ماجه (٤١٨٦/١٤٠٠/٢).

(٢) الأحزاب ٢١.

(٣) البخاري (٣٥٦٠/٥٦٦/٦)، مسلم (٢٣٢٧/١٨١٣/٤)، أبو داود (٤٧٦٤/١٤٢/١٣).

قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيته منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت. إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ : «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً» (٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عُدل فيها وما أريد فيها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ ، فأتيته فأخبرته بما قال؛ فتغير وجهه حتى كان كالصّرف. ثم قال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟». ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». فقلت: لا جرم لا أرفع إليه حديثاً بعدها»(٣).

---

(١) البخاري (٣١٤٩/٢٥١/٦).
(٢) مسلم (١٧٩٥/١٤٢٠/٣).
(٣) سبق تخريجه.

قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . ﴾. الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَم يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون . أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِم وَجَنَّاتٌ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعمَ أَجرُ العَامِلين ﴾[1].

معشر المسلمين: إن البشر من غير الأنبياء لن تكون لهم العصمة أبداً، وسيظل الإنسان يعتريه ما يعتري بني الإنسان من الغفلة التي يقع بسببها في التقصير في حق الله إما بترك واجب أو ارتكاب محرم. يقول ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[2]. وبين ﷺ أن الخطأ والوقوع في المخالفات إنما يكون نتيجة غفلة القلب عن ذكر الله، فقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن»[3]. يريد ﷺ أن القلب

(١) آل عمران **١٣٣ - ١٣٦**.
(٢) الترمذي (٤/٧٠/٢٦١٦)، ابن ماجه (٢/١٤٢٠/٤٢٥١).
(٣) البخاري (٥/١١٩/٢٤٧٥)، مسلم (١/٧٦/٥٧)، أبو داود (١٢/٤٤٤/٤٦٦٤)، النسائي (٨/٦٤)، ابن ماجه (٢/١٢٩٨/٣٩٣٦).

مـا دام يقظاً وأن الإيمـان مـا دام قـويـاً، فـإن نـور الإيمـان في القلب يجعـل المسلم يبصـر الطريق أمـامه في سيـره إلى الله، فيرى كـل العوائق والعقبـات التي تعترض طريقـه فيحيد عنهـا يميناً أو شمـالاً، لا يتعثر فيهـا، أما إذا غفـل القلب ضعف الإيمــان فضعف نـوره، فعمى القلب عن رؤيــة تلك العقبـات التي تكـون في الطريق، فـلا يشعر الإنسـان إلا وقد تعثـر بواحـدة منها، وإلى ذلـك يشير القـرآن أيضاً، مبينـاً أن الغفلة قد تكـون أحيانـاً قصيـرة لا تـطول، فيفيق المسلم من غفلتـه بمجرد تعثـره قبل أن يقـع في المخالفـة، وقد تـطول الغفلة وتمتـد، فـلا يفيق المـرء منهـا إلا بعـد أن يقـع في المخـالفـة. يقـول تعـالى: ﴿ **إِنَّ الَّـذِينَ اتَّقَـوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـائِفٌ مِّنَ الشَّيـطَانِ تَـذَكَّـرُوا فَـإِذَا هُمْ مُّبْصِرُون** ﴾(1). أحيانـاً تصيبهم الغفلة نتيجة مس الشيـطان، ولكن سرعـان ما يفيقون من هذه الغفلة قبل أن تقع المخالفة.

ويقـول تعالى: ﴿ **وَالَّـذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَـاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَـرُوا اللَّهَ** ﴾(2) هذا الذكر غير الذكر في الآيـة الأولى، فالـذكر في الآيـة الأولى كان قبل المخالفة، أما الذكر هنـا فبعدهـا فلما وقعت المخـالفة لم يجـدوا أمامهم إلا أن يستغفـروا الله ﴿**فاستغفروا لـذنوبهم** ﴾ وهم يعلمـون أنـه لا أحـد يغفـر الذنوب إلا الله ﴿ **ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾.

مـعشـر الـمسـلمـيـن: لـيس مـن الـعـيـب أن تـخـطىء ولـكـن مـن العيب أن تتمادى في الخطأ. فعلى الإنسـان إذا زلت به القـدم فترك واجبـاً أو ارتكب محرماً، عليه أن يفر على وجـه السرعـة إلى رحاب الله عـزّ وجل، وأن يستغفر الله ويتوب إليـه، فإن التـوبة من كـل ذنب واجبة على الفـور، وتأخيـر التوبة من الذنب ذنب آخر يحتاج إلى توبة.

وإنَّمـا كانت التـوبة واجبـة لأن الله آمـر بهـا فقـال: ﴿ **وَتُـوبُـوا إِلَى اللَّهِ**

---

(1) الأعراف ٢٠١.
(2) آل عمران ١٣٥.

﴿ جَمِيعاً أَيُّهَ المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١). وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾(٢). والأمر للإيجاب كما يقول علماء الأصول.

معشر الأخوة: إن الله أمرنا بالتوبة، وبين أنه يحب التوابين، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾(٣). وبين الرسول ﷺ أن الله يفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه، فقال ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»(٤).

وقد أمر الله رسوله بالاستغفار فقال: ﴿ فَاعلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاستَغْفِر لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ﴾(٥). وقال: ﴿ فَاصبِر إِنَّ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِر لِذَنْبِكَ وَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾(٦). وقد استجاب ﷺ لأمر ربه فأكثر من الاستغفار وكان لسانه لا يفتر عنه أبداً، حتى قال ابن عمر: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم»(٧). وكان ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»(٨).

فإذا كان وهو رسول الله يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مائة مرة، فما

---

(١) النور ٣١.
(٢) التحريم ٨.
(٣) البقرة ٢٢٢.
(٤) مسلم (٢٧٤٧/٢١٠٤/٤).
(٥) محمد ١٩.
(٦) غافر ٥٥.
(٧) الترمذي (٣٤٩٥/١٥٨/٥)، أبو داود (١٥٠٢/٣٧٩/٤)، ابن ماجه (٣٨١٤/١٢٥٣/٢).
(٨) مسلم (٢٧٠٢/٢٠٧٥/٤).

بالك بغيره؟ إن غيره أحوج إلى الاستغفار والتوبة منه ﷺ ، فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك ما ترك الاستغفار، ولا قعد عن الطاعة، «وكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فتقول له عائشة: لم تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»[1].

شروط التوبة:

ليس كل من قال تبت إلى الله فقد تاب، إنما للتوبة شروط لا بد من توفرها حتى تكون مقبولة عند الله، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: الإقلاع عن الذنب: كل مذنب يريد أن يتوب إلى الله من ذنبه فعليه أن يقلع عن هذا الذنب، ويخلع نفسه منه كما يخلع قميصه، أما أن يظل متلبساً بالذنب ويقول: اللهم اغفر لي، فأنّى يغفر الله له.

الشرط الثاني: الندم على ما فات والتأسف عليه، حتى إذا تذكره بكى من خشية الله.

الشرط الثالث: الإصرار والعزم الأكيد على أن لا يعود إلى هذا الذنب أبداً.

الشرط الرابع: أن تقع التوبة حال الصحة والعافية قبل الموت أو قبل أن تطلع الشمس من مغربها، فمن أخر التوبة حتى عاين لم تقبل توبته، ومن طلعت عليه الشمس من مغربها لم تقبل توبته: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[2]. أي ما لم تبلغ الروح الحلقوم. وقال ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[3]. ولذا لما أعلن فرعون توبته وإسلامه بعد أن أدركه الغرق لم تقبل منه، قال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ

(١) البخاري (٤٨٣٧/٥٨٤/٨)، مسلم (٢٨٢٠/٢١٧٢/٤).
(٢) الترمذي (٣٦٠٣/٢٠٦/٥)، ابن ماجه (٤٢٥٣/١٤٢٠/٢).
(٣) مسلم (٢٧٠٣/٢٠٧٦/٤).

بَغيَاً وَعَدْواً حَتىٰ إِذَا أَدْرَكَـهُ الغَرَق قَـالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الَّذي آمَنَتْ بِـهِ بَنُو إِسْرَائِيل وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾. فقيل لـه: ﴿ **آلآنَ وَقَدْ عَصَيتَ قَبـلُ وَكُنتَ مِنَ المفْسِدِينَ** ﴾[1].

الشـرط الخـامس: إذا كـان الـذنب الـذي يـريــد أن يتـوب منه يتعلق بحقــوق الآدميين فعليـه أن يـرد من الحقـوق مـا استـطاع وأن **يتحللهم** إن أمكن، فـإن لم يمكنه رد الحقـوق، أو كـان سيتـرتب على **تحللهـــم** ضـرر ومفسدة، فعليه الإكثار من الدعاء والاستغفار لهم.

معشـر المسلمين: علمنـا أن المعاصي سببهـا غفلة القلب، وأن هــذه الغفلة قـد تقصر وقـد تطول، وربمـا طالت سنين ثم يفيق الـرجـل ويـريـد أن يتوب فيجد في نفسـه هذه الـوساوس، كيف تتـوب بعد كـل هذه المعـاصي؟ كيف تتـوب وقد كـان منك وكـان وكـان؟ كيف تـطمـع أن يغفـر الله لـك وقـد تركت الصلاة سنين، وإبليس ترك سجدة واحـدة فطرد من رحمـة الله؟ نقول: من وجـد في نفسه هـذه الوسـاوس فليعلم أنها من الشيـطان الـرجيم فليستعـذ بالله من شره، من همـزه ونفخه ونفثـه، وليعلم أن الله يغفر الـذنوب جميعـاً، كمـا صَحَّ[2] أن رجالاً مشـركين قتلوا فأسـرفوا، وزنـوا فأسـرفوا، فجـاءوا إلى رسول الله ﷺ يقولون: يا محمد إن ما تـدعو إليـه لحسن وجميل، لـو تخبرنـا أن لما عملناه توبة، فأنزل الله قـوله في سـورة الزمـر: ﴿ **قُلْ يَـا عِبَادِيَ الَّـذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لاَ تَقنطُوا مِن رَّحمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم** ﴾[3]. وقولـه في سورة الفـرقان: ﴿ **وَالَّـذِينَ لاَ يَدعُـونَ مَعَ اللَّهِ إلهـاً آخَـرَ وَلاَ يَقْتلُونَ النَّفَس الَّتِي حَـرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِـالحقِّ وَلاَ يَـزنُـونَ وَمَنْ يَفعَلْ ذَلِكَ يَلقَ أَثاماً. يُضَـاعَفُ لَهُ العَـذَابُ يَوْمَ القِيَـامَةِ وَيَخْلُدْ فِيـهِ مُهَـاناً. إِلاَّ مَنْ تَـابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَـلاً صَالِحـاً فَأُولئِـكَ يُبـدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَـاتِهِمْ حَسَنَـاتٍ**

(١) يونس ٩٠، ٩١.
(٢) البخاري (٤٨١٠/٥٤٩/٨)، مسلم (١٢٢/١١٣/١)، النسائي (٧/٨٦).
(١) الزمر ٥٣.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1].

وختاماً إلى كل تائب مبتدىء أهدي هذه النصيحة:

إذا أردت أيها التائب أن تثبت قدمك على الصراط المستقيم؟ إذا أردت ألا تنتكس وألا ترتد على عقبك؟ إذا أردت أن تثبت على الاستقامة حتى الموت؟ فاجتهد على أن تغير البيئة التي كنت تعيش فيها قبل التوبة، وأن تستبدل بها بيئة أخرى صالحة، فإن البيئة الصالحة من العوامل المساعدة على ثبات التائب المبتدىء،» وهذا هو المفهوم من هذا الحديث العظيم:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط: فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ـ أي حكماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»[2].

(١) الفرقان ٦٨ ـ ٧٠.
(٢) مسلم (٢٧٦٦/٢١١٨/٤)، وهذا لفظه، البخاري (٣٤٧٠/٥١٢/٦) مختصراً.

صفات أئمة المتقين

الصفة الأولى: التواضع

أيها الأخوة المسلمون:

إن لله عباداً فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
صاروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

لقد تحدثنا عن ثلاث عشرة صفة من صفات المتقين، ومما لا شك فيه، أن هذه الصفات قد بهرت الأنظار، وأخذت بالقلوب، وجعلت أولي الأحلام والنهي يتطلعون إلى تحصيلها، رجاء أن يكونوا مع أهلها ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهرٍ . فِي مَقْعَدِ صِدقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾[1]. وإذ الأمر كذلك فإننا الآن نقول:

إن لهؤلاء المتقين أئمة يأتمون بهم ويهتدون بهديهم، وأئمة المتقين قوم اجتباهم الله واصطفاهم، وكرمهم بشرف النسبة إليه، حيث سماهم في كتابه «عباد الرحمن»، فمن هم عباد الرحمن الذين هم أئمة المتقين؟ إن الحديث عن المتقين قد شوق القلوب إلى تحصيل صفاتهم حتى نكون معهم فما بالك بالحديث عن أئمتهم وسادتهم وقادتهم؟!

---

(١) القمر ٥٤، ٥٥.

أئمة المتقين سماهم الله في كتابه «عباد الرحمن»، وعباد الرحمن ثلة من المؤمنين، سمعوا الله عزّ وجل يقول: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ . تَعرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[1]. والقوم من صفاتهم أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فلما سمعوا الله تعالى يصف نعيم أهل الجنة، ويأمر بالتنافس فيه، قطعوا على أنفسهم العهد أن يتنافسوا مع إخوانهم المؤمنين في الأعمال الصالحة، التي تقربهم من الله تعالى، وتبلغهم رفيع الدرجات في أعلى الجنات. فنظروا فوجدوا أن قصر أعمارهم يقعد بهم عن تحصيل ثمن هذه الدرجات الرفيعة. نظروا فوجدوا السلعة غالية، وزمن السوق قصير لا يتسع لتحصيل الثمن. ففكروا في طريقة يتحصلون بها على ثواب دائم وأجر مستمر لا ينقطع بانقطاع آجالهم. فقرءوا القرآن فوجدوا الله يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[2]. والآثار التي حكى الله أنه يكتبها ويسجلها يمكن أن يراد بها الآثار الحسية وهي الخطا، ويمكن أن يراد بها الآثار المعنوية، وهي أثر الإنسان في الناس، خيراً كان أو شراً.

أما الآثار الحسية فقد جاء في الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: «بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ «قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك. فقال «بني سلمة دياركم تكتب آثاركم. دياركم تكتب آثاركم». فقالوا: ما يسرنا أنا كنا تحولنا»[3] ومعنى «دياركم تكتب آثاركم» أي الزموا هذه البيوت البعيدة تكتب آثاركم أي خطاكم إذا جئتم إلى المسجد، فإنه كلما كثرت الخطا كثر الأجر والثواب.

وأما الآثار المعنوية فإنه مما لا شك فيه أن جُلَّ الناس لا بد أن يتركوا

(١) المطففين ٢٢ ـ ٢٦.
(٢) يس ١٢.
(٣) مسلم (١/٤٦٢/٦٦٥).

بعد مماتهم أثراً في غيرهم، سواء كان هذا الأثر خيراً أم شراً، وقليل ما هم هؤلاء الذين يموتون ولا يؤثرون في غيرهم. وقد قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1]. وقال ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[2]. وقال ﷺ: «ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنّ القتل»[3].

عرف عباد الرحمن هذا، وقرءوا معه قول الله تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَومَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وأَخَّرَ ﴾[4] قال العلماء في تفسير هذه الآية: ينبأ الإنسان يوم القيامة إذا قام بين يدي الله تعالى بما قدم من أعمال قبل موته وبما أخر بعد موته، إذ أنه لا بد أن يكون قد ترك أثراً في الناس، فإن كان ذلك الأثر خيراً أتاه من حسناته إلى يوم القيامة، وإن كان ذلك الأثر شراً أتاه من آثامه إلى يوم القيامة. فلما علم أئمة المتقين ذلك سألوا الله ربهم أن يعينهم على فعل الخيرات، وترك المنكرات، وأن يجعلهم أئمة لغيرهم يهتدون بهديهم، ويقتدون بهم، ويسيرون على منهجهم، حتى إذا ماتوا هم وصل إليهم ثواب كل فعل خير فعله غيرهم مقتدياً بهم، من غير أن ينقص من ثواب الغير شيء. فقالوا كما حكى الله عنهم: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[5].

---

(١) مسلم (١٦٣١/١٢٥٥/٣)، أبو داود (٢٨٦٣/٨٦/٨)، الترمذي (١٣٩٠/٤١٨/٢)، النسائي (٢٥١/٦).
(٢) مسلم (١٠١٧/٧٠٤/٢)، النسائي (٧٥/٥).
(٣) البخاري (٣٣٣٥/٣٦٤/٦)، مسلم (١٦٧٧/١٣٠٣/٣)، الترمذي (٢٨١٣/١٤٨/٤)، النسائي (٨٢/٧).
(٤) القيامة ١٣.
(٥) الفرقان ٧٤.

وخلاصة هذه المقدمة أيها المسلم أنك تستطيع أن تجتهد على أن تأتيك حسنات لا تنقطع أبداً إلى يوم القيامة وإن مت أنت قبل ذلك بآلاف السنين، وذلك إذا اجتهدت على أن تقوم بالواجبات، وتترك المحرمات، وتدعو الناس إلى ذلك، فيكون لك أجر كل من يهتدي بك إلى يوم القيامة، و «لأن يهدي الله بك رجلًا واحداً خير لك من حُمْر النعم»[1].

معشر المسلمين: إذا علمنا هذا، وعرفنا أن أئمة المتقين هم عباد الرحمن، فما هي الصفة الأولى من صفات القوم، يقول تعالى: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً** ﴾[2]. هذه الآية ذكرت صفة من صفات أئمة المتقين وهي التواضع. والتواضع يا عباد الله صفة من الصفات المثالية، وخلق من الأخلاق العالية أمر الله تعالى به رسوله ﷺ فقال: ﴿ **واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[3]. ونهاه عن ضد التواضع وهو الكبر فقال: ﴿ **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾[4]. ومدح الله أولياءه وأثنى عليهم لتواضعهم لعباده، فقال في الآية التي معنا ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سلاماً** ﴾[2]. يمشون على الأرض هوناً أي بسكينة ووقار، لا يمشون مشية الضعيف المستكين، إنما يمشون بأدب ووقار وسكينة، وقد كان سيد المتواضعين محمد ﷺ إذا مشى سبق من معه، فكانوا يركضون وهو يمشي على عادته، فقد كان ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له[5].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي**

---

(١) البخاري (٤٢١٠/٤٧٦/٧)، مسلم (٢٤٠٦/١٨٧٢/٤).
(٢) الفرقان ٦٣.
(٣) الحجر ٨٨.
(٤) الإسراء ٣٧.
(٥) انظر زاد المعاد (١/١٦٧).

اللَّهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الكَافِـرِينَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيـلِ اللَّهِ وَلَا يَخَـافُـونَ لَـومَـةَ لَائِم ﴾ [1]. ولقـد بين النبي ﷺ أن الكبـر صفة من صفات الله، فمن تكبر فقد نـازع الله في إحدى صفـاته فحقت عليـه كلمـة العذاب، فقـال ﷺ : «إن الله تعالى يقـول: «إن العز إزاري والكبـريـاء ردائي، فمن نازعني فيهما عذبته» [2].

وعن أبي هـريـرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: «بينمـا رجـل يمشي في حلة تعجبـه نفسه، مُـرَجِّل رأسـه، يختال في مشيتـه، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» [3].

وقـد جرت سنـة الله تعالى في خلقـه أن من تواضـع لله رفعـه الله، ومن تكبر على عباد الله وضعه الله، عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبـداً بعفو إلا عـزاً، وما تـواضع أحد لله إلا رفعه الله عزَّ وجل» [4].

كمـا بين ﷺ أن جـزاء المتكبـرين النـار، وأن الجنـة محـرمـة عليهم، فقال ﷺ : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» [5].

وقـال ﷺ : «يحشـر المتكبـرون يـوم القيـامـة أمثـال الـذر في صـور الـرجال، يغشـاهم الذل من كـل مكان، يسـاقـون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال» [6].

فحق على كل مسلم قد سمـع هذا الـوعيد أن يخفض جنـاحه لإخـوانه المؤمنين، وأن لا يتكبـر عليهم، فالعجب كـل العجب من إنسـان أولـه نـطفـة

---

(١) المائدة ٥٤.
(٢) مسلم (٢٦٢٠/٢٠٢٣/٤)، أبو داود (٤٠٧٢/١٥٠/١١).
(٣) البخاري (٥٧٨٩/٢٥٨/١٠)، مسلم (٢٠٨٨/١٦٥٣/٣).
(٤) مسلم (٢٥٨٨/٢٠٠١/٤).
(٥) مسلم (٩١/٩٣/١)، الترمذي (٢٠٦٧/٢٤٣/٣).
(٦) الترمذي (٢٦١٠/٦٦/٤).

قذرة، وآخره جيفة نتنة، وهو بين ذلك يمشي وبين جنبيه الأقذار، عجباً ممن كان هذا حاله كيف يتكبر على عباد الله. يروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه كان يقول: عجباً لك يا ابن آدم! تغسل الخرء كل يوم بيدك مرتين أو ثلاثاً ثم تتكبر على عباد الله. تواضع:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

معشر المسلمين: إن الكبر ثلاثة أقسام: تكبر على الله، وتكبر على رسول الله، وتكبر على عباد الله، أما المتكبرون على الله فهم الذين رفضوا عبادة الله، كل من رفض عبادة الله فهو متكبر على الله قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ، وأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً** ﴾[2].

وأما التكبر على رسول الله فمعناه عدم طاعته، وعدم الانقياد له، وعدم الاستجابة لأمره، وعدم التمسك بسنته، كل من رفض لرسول الله أمراً، أو ترك سنته زهداً فيها ورغبة عنها، فقد تكبر على رسول الله ﷺ، وجزاء المتكبر على رسول الله جزاء المتكبر على الله، لأن طاعة رسول الله من طاعة الله. عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله: فقال: «كل بيمينك». قال: لا أستطيع: قال: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه[3] فدعاء النبي ﷺ على الرجل إنما كان لتكبره على الانقياد لأمره ﷺ.

(١) غافر ٦٠.
(٢) النساء ١٧٢، ١٧٣.
(٣) مسلم (٣/١٥٩٩/٢٠٢١).

أما التكبر على عباد الله فهو نتيجة من نتائج مرض خبيث في القلوب، وهو مرض العجب، الإنسان حين يعجب بنفسه، حين يعجب بكثرة ماله، حين يعجب بمنصبه، حين يعجب بجاهه، حين يعجب بنسبه، حين يعجب بكثرة علمه، إذا أعجب الإنسان بحال من أحواله، أو صفة من صفاته، دعاه العجب إلى الترفع على عباد الله والتكبر عليهم، ذلك أن الذي يعجب بنفسه يرى نفسه فوق الثريا والناس دونه تحت الثرى ليسوا فوق الثرى، فلذلك هو يتكبر عليهم لا يخفض جناحه لهم، ولا يجالسهم، ولا يخالطهم، ولا يزورهم، ولا يجتمع بهم، ولا يمشي إليهم، لأنه يرى أنه أعلى منهم، وأنه يجب أن يزار ولا يزور، وأن يؤتى ولا يأتي، وأن يجاء إليه ولا يجيء هو إلى غيره. وهذا التكبر هو ذنب إبليس الأول. لما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أعجب إبليس بنفسه، ورأى نفسه خيراً من آدم، فحمله عجبه بنفسه على رفض السجود لآدم لأنه خير منه، كما صرح بذلك في جوابه للرب عز وجل، حين سأله: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾[1].

والتكبر على عباد الله أهون وأقل جرماً من التكبر على الله ورسوله، إلا أنه وسيلة إليه، من تكبر على الناس كان جديراً أن يتكبر على الله ورسوله، ولذلك لما رأى إبليس نفسه خيراً من آدم تكبر عليه، وحمله تكبره على آدم على التكبر على الله عزَّ وجل، فرفض أمر الله له بالسجود لآدم.

ومن هنا حُقّ على كل مسلم أن يخفض جناحه للمؤمنين ولا يتكبر عليهم، وأن يعلم أن الكبر ليس من صفات المؤمنين، وأن الكبر لا يزيد المتكبر إلا ضعة، وأن التواضع لا يزيد المتواضع إلا رفعة، كما قال ﷺ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[2].

(١) ص ٧٥، ٧٦.
(٢) سبق قريباً.

وعلى المسلم أن يعلم أن الكبر سبب من أسباب الضلالة، وأن الكبر سبب من أسباب عمى البصيرة، حتى لا يرى المتكبر المعروف معروفاً ولا المنكر منكراً، فلا يزال يتخبط في ظلمات الجهل والضلالة، والكفر والشرك، حتى يلقى الله على ذلك، فيكب على وجهه في نار جهنم، قال تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرض بِغَيْرِ الحَقِّ، وإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، وإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً** ﴾[1]. واقرؤا إن شئتم قصة قارون، وكيف كانت عاقبة بغيه وظلمه وتعاليه على قومه: ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِم** . . . ﴾[2]. . . الآيات الخ.

(١) الأعراف ١٤٦.
(٢) القصص ٧٦ـ ٨٣.

الصفة الثانية: الخوف من عذاب الله (وصف جهنم)

خلق الله الخلق ليعبدوه لا يشركوا به شيئاً، وخلق لهم ثلاثة دور: داراً للعمل هي دار الدنيا، ودارين للجزاء: أحدهما: دار السلام ﴿ **وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** ﴾[1]. والثانية: دار البوار ﴿ **فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾[2].

ولقد وصف الله تعالى داري الجزاء في كتابه الكريم وصفاً يجعل سامعه كأنه يراها رأي العين، والمقصود من ذلك: أن يفر الناس من عذاب الله إلى رضوانه، أن يفروا من النار إلى الجنة، وذلك بفرارهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، والناس بعد ذلك قسمان: قسم انتفع بما ذكر الله تعالى في كتابه عن الدارين، فعمل للفوز بالجنة والنجاة من النار، وقسم ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، غرَّتهم الحياة الدنيا واطمأنوا بها وركنوا إليها، ولم يخافوا مما خوفهم الله منه وقالوا: ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾[3]. يقول تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ الخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ. لَهُمْ مِن فَوقِهِم ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِن تَحتِهِم ظُلَلٌ، ذَلِكَ**

---

(١) النحل ٣٠.
(٢) الزمر ٧٢.
(٣) الشعراء ١٣٧، ١٣٨.

﴿ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾[1]. ومع هذا التخويف فإن قوماً قست قلوبهم فلم يخافوا بل لجُّوا في طغيانهم يعمهون، يقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ والشَّجرةَ المَلْعونَة فِي القُرْآنِ ونُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُم إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾[2]. وذلك لأنهم كفروا بما ذكر الله عن دار البوار.

أما المؤمنون بربهم فإنهم من خوفهم مما خوفهم الله به يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يحذرون عذاب الله ويرجون رحمته، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً، وإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً. وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً. إِنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً ﴾[3].

فما هي تلك الدار التي خوف الله عباده بها، ماذا في القرآن الكريم عن هذه الدار؟

إن الله تعالى سماها دار البوار، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القَرَارِ ﴾[4].

وهي دركات بعضها تحت بعض، أعلاها أخفها عذاباً، وأسفلها أشدها عذاباً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾[5].

ولهذه الدار سبعة أبواب، قال تعالى: ﴿ وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أجمعينَ. لَهَا سَبعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[6].

---

(١) الزمر ١٥، ١٦.
(٢) الإسراء ٦٠.
(٣) الفرقان ٦٣ - ٦٦.
(٤) إبراهيم ٢٨، ٢٩.
(٥) النساء ١٤٥.
(٦) الحجر ٤٣، ٤٤.

كيف يدخلونها؟ قال ﷺ : «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(١). وقال تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾(٢). وقال: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾(٣). وقال: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾(٤). جماعة بعد جماعة، وفوجاً بعد فوج. حتى إذا دخلوها وذاقوا حرها، أُلقي عليهم من التأنيب والتقريع والتوبيخ ليذوقوا العذاب النفسي المعنوي كما ذاقوا العذاب الحسي، ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٤). ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(٥). ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً. هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٦).

فإذا لقوا العذاب المعنوي من هذا التأنيب فوق ما هم فيه من العذاب الحسي، أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ. قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾(٧). وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ

---

(١) مسلم (٢٨٤٢/٢١٨٤/٤)، الترمذي (٢٦٩٨/١٠٣/٤).
(٢) الكهف ١٠٠.
(٣) الشعراء ٩١.
(٤) الزمر ٧١.
(٥) الملك ٨ - ١٠.
(٦) الطور ١٣ - ١٦.
(٧) الأعراف ٣٨، ٣٩.

موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[1]. قال تعالى: ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾[2]. حتى إذا انتهوا من هذا العتاب قام كبيرهم إبليس فخطب فيهم خطبة سجلها القرآن قبل إلقائها، فقال تعالى: ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾[3].

معشر المسلمين: إن القوم إذا دخلوا النار لا يموتون فيستريحون، ولا تطفأ عنهم النار، بل كما قال تعالى: ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾[4]. وقال: ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[5].

وما دام القوم فيها أحياء لا يموتون فلا بد لهم من طعام وشراب، فإن الحي لا غنى له عن الطعام والشراب، ولا بد لهم أيضاً من ثياب: فما هي ثياب أهل النار، وما هو طعامهم وشرابهم؟ يقول تعالى: ﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد. سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾[6]. والقطران مادة معروفة سريعة الاشتعال والثوب إذا كان

(١) سبأ ٣١ - ٣٣.
(٢) ص ٦٤.
(٣) إبراهيم ٢٢.
(٤) النساء ٥٦.
(٥) الإسراء ٩٧.
(٦) إبراهيم ٤٩، ٥٠.

فيـه خيـوط من النـايلون كـان أسـرع مـا يكـون اشتعـالاً، فكيف إذا كـان من القطران.

وقال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَـابٌ مِن نَارٍ ﴾[1]. قـال ابن عباس: سبحان الله الذي جعل من النار ثياباً.

أما طعامهم فهو أشكال وألوان مختلفة:

منهـا الزقـوم: شجـرة قـال الله عنهـا ﴿ إِنَّهَـا شَجَـرَةٌ تَخْـرُجُ فِي أَصْـلِ الجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّـهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِين ﴾[2]. وقـال: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الـزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيم. كَالمُهْلِ يَغلِي فِي البُطُونِ. كَغَلْيِ الحَمِيمِ ﴾[3].

ومنهـا: الغسلين: وهو مـا يسيل من جـراحـات القـوم من صـديـد ودم ونحـوهما. قـال تعالى: ﴿ فَلَيْسَ لَـهُ اليَـومَ هَـا هُنَـا حَمِيمٌ. وَلاَ طَعَـامٌ إِلاَّ مِن غِسْلِينٍ. لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخَاطِئون ﴾[4]. ومنها: الضريع: قـال تعالى: ﴿ وُجُـوهٌ يَومَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَـامِلَةٌ نَّاصِبَـةٌ. تَصَلَى ناراً حَـامِيَةً. تُسقَى مِنْ عَينٍ آنِيَـةٍ. لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ. لاَّ يُسْمِنُ ولاَ يُغنِي من جُوعٍ ﴾[5].

وأمـا الشراب: فمنـه الحميم: وهـو المـاء المغلي الـذي قـد انتهى في غليـانه، قـال تعالى: ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَـوقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ، يُصْهَـرُ بِـهِ مَـا فِي بُـطُونِهِمْ والجُلُودُ ﴾[6]. وقال: ﴿ وَسُقُـوا ماءً حَميمَـاً فَقَطَّعَ أَمْعَـاءَهُم ﴾[7]. وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماءٍ كَالمُهْـلِ يَشوِي الـوُجُوهَ﴾[8] ولهم شراب من نهـر يسمى نهـر الغـوطـة، وهـو نهـر يجـري من فـروج المـومسـات

(١) الحج ١٩.
(٢) الصافات ٦٤، ٦٥.
(٣) الدخان ٤٣ ـ ٤٦.
(٤) الحاقة ٣٥ ـ ٣٧.
(٥) الغاشية ٢ ـ ٧.
(٦) الحج ١٩، ٢٠.
(٧) محمد ١٥.
(٨) الكهف ٢٩.

قال ﷺ : «من مات وهو مدمن للخمر سقاه الله من نهر الغوطة. قالوا: وما نهر الغوطة يا رسول الله قال: نهر يجري من فروج المومسات»[١].

هذه أطعمة القوم وأشربتهم، فإذا اشتد بهم الكرب تذكروا أنه كان لهم إخوان وآباء وأقارب ماتوا على الإيمان ففازوا بالجنة، فيتوجهون إليهم بالسؤال ﴿ونَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾. فأجابوهم ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾[٢].

معشر المسلمين: إن الكافر إذا دخل النار فَحُش جسمه، وازدادت ضخامته، ليذوق العذاب. قال ﷺ : «ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»[٣]. وقال ﷺ : «إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أُحُد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة»[٤].

فيا أخا الإسلام ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ ﴾[٥]. ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. ولاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِين ﴾[٦].

واعلم يا عبد الله أنك ما زلت في دار الدنيا دار العمل، والفرصة أمامك متاحة، والباب مفتوح ففرّ من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، واطرق باب ربك، فإن ربك يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها[٧].

---

(١) أحمد (١١٩/١٣٦/١٧)، الحاكم (٤/١٤٦).
(٢) الأعراف ٥٠.
(٣) مسلم (٢٨٥٢/٢١٨٩/٤).
(٤) الترمذي (٢٧٠٦/١٠٥/٤).
(٥) الرحمن ٤٣.
(٦) الذاريات ٥٠، ٥١.
(٧) سبق.

وإياك وطول الأمل، لا تغترن بالحياة، لا تغترن بكثرة الأيام، لا تغترن بتعاقب الليل والنهار عليك، فإنما هي آجال معلومة ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لاَ يَستَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَستَقْدِمونَ ﴾(١). واعلم يا عبد الله أن أكثر أهل النار الذين فرطوا في حق الله إذا جاءهم الموت تمنوا الرجعة وإذا عرضوا على ربهم تمنوا الرجعة، وإذا عرضوا على النار تمنوا الرجعة، وإذا دخلوها تمنوا الرجعة، ولا يجابون إلى ما طلبوا، ولا يتحقق لهم ما تمنوا:

قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوتُ قَالَ: رَبِّ ارجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ. كلا ﴾(٢). ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِم رَبَّنَا أَبْصَرنَا وَسَمِعنَا فَارْجِعنَا نَعمَل صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾(٣). ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾(٤). ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَت عَلَينَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوماً ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونَ ﴾(٥). يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً فلا يجابون، وأنت ما زلت في دار العمل، فيا عبد الله: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(٦).

تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من عليل عاش حيناً من الدهر

(١) الأعراف ٣٤.
(٢) المؤمنون ٩٩، ١٠٠.
(٣) السجدة ١٢.
(٤) الأنعام ٢٧.
(٥) المؤمنون ١٠٦ - ١٠٨.
(٦) الحاكم (٤/٣٠٦).

الصفة الثالثة: الاقتصاد في المعيشة والاعتدال في النفقة

إن المال هو عماد هذه الحياة وعصبها، به يسد الإنسان فاقته، ويقضي حاجته، ويصون حرماته، ويحفظ ماء وجهه، فلا يسأل أحداً من الناس. ولذا كان الإنسان مجبولاً على حب المال، قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾[1]. وقد سمى الله تعالى المال خيراً فقال: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَى ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ. وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[2]. والخير هو المال، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيكُم إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُم المَوتُ إِنْ تَرَكَ خَيراً الوَصِيَّةُ لِلوَالِدَينِ وَالأَقْرَبِينَ بِالمَعْرُوفِ ﴾[3]. أي إن ترك مالاً فليوص بشيء منه للوالدين والأقربين، وكان هذا قبل نزول آيات المواريث، أما بعدها فقد قال ﷺ: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»[4]. فلا يجوز لمسلم أن يوصي بشيء من ماله لأحد من ورثته. والشاهد أن الله سمى المال خيراً، وذكر أن الإنسان لحب الخير لشديد.

فالمال في حد ذاته خير ونعمة من الله تعالى، ولكن تصرف الإنسان

(١) الفجر ٢٠.
(٢) العاديات ٦ ـ ٨.
(٣) البقرة ١٨٠.
(٤) ابن ماجه (٢/٩٠٥/٢٧١٣)، ابو داود (٢/٧٢/٢٨٥٣)، الترمذي (٣/٢٩٣/٢٢٠٣).

في هذا المال ربما أخرج المال عن الخير إلى ضده، ذلك أن الناس في إنفاق المال ثلاثة أقسام:

فمنهم البخيل الذي لم يؤد حق الله ولا حق عباد الله في ماله، بل ربما بخل بالنفقة على نفسه هو. ومنهم المسرف المفرط الذي ينفق ماله ذات اليمين وذات الشمال، لا يبالي في أي وجه أنفقه، في وجه الخير أم في وجه الشر، في وجه تجلب منه المصلحة وتدفع المضرة، أو تجلب به المضرة وتدفع المصلحة، وهؤلاء هم إخوان الشياطين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّر تَبذِيراً إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾(1).

وقليل من الناس هؤلاء ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَم يُسْرِفُوا وَلم يَقتُرُوا وَكَانَ بَينَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾(2). وهؤلاء هم أئمة المتقين عباد الرحمن.

معشر المسلمين: إن الاقتصاد في المعيشة والاعتدال في النفقة، الذي هو صفة من صفات أئمة المتقين، هو أمر وسط بين طرفين كلاهما قبيح ومذموم: الطرف الأول: الإسراف، والطرف الثاني: البخل. والاقتصاد في المعيشة والاعتدال في النفقة وسط بين الطرفين، قال الله تعالى عن عباد الرحمن ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسرِفُوا وَلَم يَقتُرُوا وَكَانَ بَينَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾(2). وقال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَلَا تَجعَل يَدَكَ مَغلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبسُطها كُلَّ البَسطِ فَتَقعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾(3). فالكلام إذن عن الاقتصاد في المعيشة والاعتدال في النفقة يستلزم الكلام عن الإسراف والبخل، فإذا عرفنا ما هو الإسراف وما هو البخل عرفنا ما هو الاعتدال.

معشر المسلمين: إن الله تعالى قد جعل المال قوام الحياة، ونهانا أن نؤتى المال السفهاء الذين لا يحسنون التصرف فيه، فقال تعالى: ﴿ وَلَا

(1) الإسراء ٢٦، ٢٧.
(2) الفرقان ٦٧.
(3) الإسراء ٢٩.

تُؤتوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾(١). إن مصالح العباد تقوم على المال، وحوائجهم إنما تقضي به، ومن هنا فإن الإسلام يحث أتباعه على أنهم إذا أنفقوا لا يسرفون إسرافاً ينفد به كل ما لديهم من مال فيقعدوا محسورين، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً** ﴾(٢). تقعد ملوماً من الناس إذا بخلت بمالك عليهم، وتقعد محسوراً إذا أنفقت كل ما عندك ثم قعدت لا مال لك، لا تجد ما تسد به فاقتك ولا ما تقضي به حاجتك، **فيتقطع** قلبك حسرات على ما ضيعت من مال.

ولقد نهى الله تعالى عن الإسراف، وبين أنه لا يحب المسرفين، فقال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعرُوشَاتٍ وَالنَّخلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَومَ حَصَادِهِ وَلَا تُسرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾(٤). فهل يرضى مؤمن عاقل أن يعرض نفسه **لكراهية** الله؟ هل يرضى مؤمن عاقل أن يخرج بنفسه عن آداب القرآن التي بها سعادته في الدنيا والآخرة؟ هل يرضى مؤمن عاقل أن يحيد بنفسه عن طريق عباد الرحمن الذين كانت لهم جنات الفردوس نزلا؟

معشر المسلمين: إن الإسراف نوعان: إسراف في النفقة، وإسراف في الاستهلاك، أما الإسراف في النفقة فقد قال تعالى: ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُربَى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وَابنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّر تَبذِيراً. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً** ﴾(٥). فبين سبحانه وجوه الإنفاق،

(١) النساء ٥.
(٢) الإسراء ٢٩.
(٣) الأنعام ١٤١.
(٤) الأعراف ٣١.
(٥) الإسراء ٢٦، ٢٧.

وأخبـر أنه لا يجـوز الإسراف في النفقـة حتى لو كـان الإنفاق في سبيـل الله، ولذا قال تعالى: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ (١). والعفـو هو الـزيادة أي أنفقـوا ما زاد على حـاجتكم، ومن هنا كـان أفضل الصـدقـة مـا كـان عن ظهر غنى (٢)، أن تصدق وأنت شحيح صحيح تـأمل الغنى وتخشى الفقـر (٣). أما أن تنفق ما عندك وأنت محتاج إليه فلم يأمرك الإسلام بهذا.

وهنا إشكال يجب توضيحه، وهـو ما روي عن عمـر بن الخطاب قـال: أمـرنـا رسـول الله ﷺ أن نتصـدق، ووافق ذلـك مـالاً عنـدي، فقلت: اليـوم أسبق أبـا بكر إن سبقتـه يومـاً مـا، قـال: فجئت بنصف مـالي. فقـال رسـول الله ﷺ: «مـا أبقيت لأهلك؟ فقلت: مثله. وأتى أبـو بكـر بكـل مـا عنـده، فقال: «يا أبـا بكر مـا أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسـوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً» (٤).

فهـا هـو أبـو بكـر أنفق مـالـه كله في سبيـل الله، فكيف نـزيـل هـذا الإشكال؟.

الجواب: أن مثل فعـل أبي بكر مشـروط بأن يكـون من مثل أبي بكـر، أن يكـون المتصـدق قـوي الإيمـان قـوي اليقين، واثقـاً بـوعـد الله أن الله سيخلف عليه، كما قال سبحانـه ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُم مِّنْ شَيْءٍ فَهُـوَ يُخلِفُهُ وَهُـوَ خَيْرُ الـرَّازِقِينَ ﴾ (٥). أما إذا قـلّ الإيمـان، وضعف اليقين، وقـل التـوكـل، وقلّت الثقـة بما عنـد الله، فلا على الإنسـان إذا أنفق الفضـل من مـالـه وأمسـك مـا يحتـاج إليـه، عن سعـد بن أبي وقـاص رضي الله عنـه قـال: جـاءني رسـول الله ﷺ يعـودني عام حجـة الوداع من وجـع اشتد بي. فقلت: يـا رسول الله، إني قـد بلغ بي من الـوجـع مـا تـرى وأنـا ذومـال ولا يـرثني إلا ابنـة لي،

(١) البقرة ٢١٩.
(٢) البخاري (١٤٢٦، ١٤٢٧/٢٩٤/٣)، أبو داود (١٦٦٠/٩٢/٥)، النسائي (٦٢/٥).
(٣) هذا معنى حديث.
(٤) أبو داود (١٦٦٢/٩٤/٥)، الترمذي ٣٧٥٧/٢٧٧/٥).
(٥) سبأ ٣٩.

أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. قلت: فالشطر يا رسول الله؟ فقال: لا. قلت: فالثلث يا رسول الله؟ قال: الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» [١].

هذا هو النوع الأول من الإسراف: إسراف الإنفاق.

أما إسراف الاستهلاك، فالله تعالى يقول: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسرِفِينَ** ﴾ [٢] فأمر الله تعالى عباده أن يأكلوا ويشربوا مما أباح لهم من الطيبات، ولكن نهاهم عن الإسراف في الأكل والشرب لأن في الإسراف فيهما مضرة بالعقل وبالبدن.

ومن الإسراف في الاستهلاك الإسراف في لبس الثياب الفاخرة، وركوب السيارات الفخمة، وبناء القصور المشيَّدة التي يذهب أهلها ويتركونها لمن وراءهم، وقد أخبر النبي ﷺ أن المال المنفق في هذا البناء مال ضائع، لا أجر لصاحبه فيه، فقال ﷺ: «إن العبد ليؤجر في نفقته كلِّها إلَّا في البناء». [٣] ولقد تباهى الناس وتفاخروا في كل ذلك وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَينَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولَادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ** ﴾ [٤].

ومن الإسراف في الاستهلاك ما نشاهده في أعراس المسلمين وولائمهم هذه الأيام، كم من الأموال تنفق في حفلات الأعراس؟ وكم من الأموال تنفق في الولائم التي لا يؤكل منها نصفها ولا ثلثها ولا ربعها،

---

(١) البخاري (٢٧٤٢/٣٦٣/٥)، مسلم (١٦٢٨/١٢٥٠/٣)، أبو داود (٢٨٤٧/٦٤/٨)، النسائي (٢٤٢/٦).
(٢) الأعراف ٣١.
(٣) ابن ماجه (٤١٦٣/١٣٩٤/٢).
(٤) الحديد ٢٠.

وتلقى كلها إلا قليلاً على المزابل، وملايين البشر يموتون جوعاً.

معشر المسلمين: متى يقلع المسلمون عن هذه العادات السيئة؟ متى يفيق المسلمون من غفلتهم ويتركون الجري وراء الشرق والغرب؟

إن النكاح نعمة من نعم الله، ولكن هذه النعمة قد أحيطت بمفاسد ومعاصي جعلتها نقمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لقد أحيطت بالمغالاة الزائدة في المهور، وأحيطت بالإسراف البالغ في الولائم، وأحيطت بالأعمال المنحرفة في الزفاف من الاختلاط والتصوير ودخول الرجال والنساء مع العروسين غرفتهما لالتقاط الصور لأول لقاء بين العروسين، فيا سبحان الله كيف بلغ الأمر بهؤلاء إلى هذا التدهور؟ وكيف انحدروا إلى الهاوية بهذه السرعة؟ كيف خرجوا عن الحدود الشرعية والمروءات المرعية إلى عادات أخذوها من الكفار أو من مقلدي الكفار؟ كيف يدع هؤلاء ما يأمرهم به دينهم وما عليه مجتمعهم من الحياء والحشمة والبعد عن أسباب الفتنة إلى ما كانت عليه المجتمعات الفاسدة التي عثا بها الشر والفساد، فيقلدونهم ذلك التقليد الأعمى، فمثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون[(١)].

معشر المسلمين: لقد ذم الله المسرفين المترفين، وبين أن الترف سبب لقسوة القلب ثم هو سبب للخروج من الدين. كما بين سبحانه أن المترفين هم أعداء المرسلين في كل أمة قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾[(٢)]. وبين سبحانه أن سبب هلاك الأمم وتدمير القرى ترف المترفين وفسقهم، فقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾[(٣)].

---

(١) الضياء اللامع لابن عثيمين (٥٦٤).
(٢) سبأ ٣٤.
(٣) الإسراء ١٦.

كما بين سبحانه أن الترف من أسباب عذاب الآخرة . قال تعالى : ﴿ وأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِّن يَحمُومٍ . لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبلَ ذَلِكَ مُترَفِينَ ﴾(١).

معشر المسلمين: ما هو الدواء لهذا الداء؟ كيف يتخلص المسلم من الإسراف والتبذير، بعد أن علم أن الله لا يحب المسرفين، وأن المبذرين إخوان الشياطين؟

العلاج كامن في معرفة العبد أن المال الذي بين يديه مال سيده وليس ماله، أنت ومالك ملك لله ﴿ لِّلَّهِ مُلكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(٢). وقد استودعك الله هذا المال، فكن أميناً عليه ولا تنفق إلا فيما يحب الله أن تنفق فيه. واعلم أنك مسؤول يوم القيامة عن هذا المال: من أين اكتسبته وفيم أنفقته(٣)؟ ثم اعلم أيها المسلم أنك ما خلقت للجري وراء الشهوات والملذات، فإن الله قد عاب قوماً غلبتهم شهواتهم فجروا وراءها فحقت عليهم كلمة العذاب قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوفَ يَلقَونَ غَيّاً ﴾(٤). ﴿ وَيَومَ يُعرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذهَبتُم طَيِّبَاتِكُم فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنيَا واسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَاليَومَ تُجْزَونَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾(٥).

---

(١) الواقعة ٤١ ـ ٤٥ .
(٢) الشورى ٤٩ .
(٣) الترمذي (٢٥٣٢/٣٦/٤).
(٤) مريم ٥٩ .
(٥) الأحقاف ٢٠ .

الجود والكرم

إن السخاء خلق المسلم، والكرم شيمته، والمسلم لا يكون شحيحاً ولا بخيلاً، لأن الشح والبخل مرضان خبيثان، منشؤهما من خبث النفس وظلمة القلب. والعبد المسلم بعمله الصالح نفسه طيبة وقلبه مشرق، ولذا لا يكون المسلم شحيحاً ولا بخيلاً. وقد جاء هذا في الحديث عن النبي ﷺ، بين ﷺ أن الإيمان والبخل لا يجتمعان، وأن شر ما اجتمع في الرجل هو الجبن والبخل، وأن البخيل لا يدخل الجنة.

فقال ﷺ : «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»(١).

وقال: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»(٢).

وقال: «لا يدخل الجنة خَبٌّ ولا بخيل ولا منان(٣). والخَبُّ هو الذي يحتال بمكره وخديعته حتى يفرق بين الأحبة.

ولذا أثر عن النبي ﷺ أنه كان يستعيذ بربه من الجبن والبخل، فكان من جملة دعائه « اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل»(٤).

---

(١) النسائي (٦/١٣).
(٢) الترمذي (٣/٢٣١/٢٠٢٨).
(٣) الترمذي (٣/٢٣٢/٢٠٣٠).
(٤) البخاري (١١/١٧٨/٦٣٧٠)، النسائي (٨/٢٦٦)، الترمذي (٥/٢٢٢/٣٦٣٨).

والبخل هو إمساك المال وحبسه، وعدم أداء حق الله فيه، فإذا كان مع البخل الحرص على المال حتى لا يبالي من أين اكتسبه، حتى يأكل أموال الناس بالباطل ظلماً وعدواناً فهذا هو الشح. وقد قال ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع»[1]. وقال ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[2].

وقد علق الله سبحانه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة على الوقاية من الشح، فقال: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

معشر المسلمين: إن الله تعالى قد ذم البخل وأهله، وتوعدهم أن يذيقهم سوء العذاب يوم القيامة قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُم بَل هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾[4].

قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك». ثم تلا الآية[5].

وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴾[6].

قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها

(١) ابو داود (٢٤٩٤/١٨٧/٧).
(٢) مسلم (٢٥٧٨/١٩٩٦/٤).
(٣) الحشر ٩.
(٤) آل عمران ١٨٠.
(٥) البخاري (١٤٠٣/٢٦٨/٣).
(٦) التوبة ٣٤، ٣٥.

حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحتَ له صفائح من نار، فأحمى عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيري سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» (١).

والكنز هو المال المدخر الذي لا تؤدي زكاته. عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كنت ألبس أوضاحاً من ذهب. فقلت يا رسول الله أكنزهو؟ فقال ﷺ : «ما بلغ أن تؤدي زكاته فأديت زكاته فليس بكنز» (٢). ففهم من هذا أن المال لا يسمى كنزاً إلا إذا بخل صاحبه بأداء زكاته، فأما إذا كان للرجل مال فعرف حق الله فيه، فلا يدخل في الوعيد المذكور في الآية، ولا يسمى ماله كنزاً.

معشر المسلمين: إن البخل خلق ذميم، ومرض خبيث، وعلى كل مسلم أن يتطهر منه، فإن البخل لا يعود على البخيل بنفع في الدنيا ولا في الآخرة، بل البخل شؤم على صاحبه في الدنيا والآخرة. أما شؤمه في الآخرة فإنه يعرضه للوعيد المذكور في الآيات السابقة. وأما شؤمه في الدنيا فإن الرجل إذا أُعطيَ مالاً فلم يعرف حق الله فيه، ذهب المال كله بشؤم البخل، وهذا ما ذكره الله تعالى في قصة أصحاب الجنة، وكان من شأنهم أن أباهم مات وترك لهم حائطاً، وكان أبوهم صالحاً، كان إذا حصد قسم ما حصده ثلاثة أقسام: فيمسك قسماً له ولأهله، ويعطي الفقراء قسماً، ويرد القسم الثالث في الأرض، فلما مات أبوهم عابوا تصرفه، وعابوا إعطاءه الفقراء، ثم عزموا على أن لا يسلكوا مسلك أبيهم، وأن يحرموا الفقراء من ثمارهم، فلما أتى موعد الحصاد ﴿ **أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ** ﴾ فأرسل الله عليها ناراً فأحرقتها وهم نائمون، فلم يرعهم إذ أتوها إلا أنها أرض جرداء سوداء، فعرفوا أن الله عاملهم بنياتهم، فلما أرادوا

---

(١) مسلم (٩٨٧/ ٦٨٠/٢).
(٢) أبو داود (١٥٤٩/ ٤٢٦/٤).

حرمان الفقراء حرمهم الله الثمار كلها، جزاء وفاقاً، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

قال تعالى: ﴿ ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ . فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

هذا شؤم البخل في الدنيا، **﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾**.

أما الجود، أما الكرم، أما السخاء، أما أداء حق الله من مال الله، فإنه سبب البركة والخير في الدنيا، والفوز بجنات النعيم في الآخرة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حَرّة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثه[2].

---

(١) القلم ١٧ - ٣٣.

(٢) مسلم (٢٩٨٤/٢٢٨٨/٤).

أيها المسلمون: كيف الخلاص من هذا المرض؟ ما هو الدواء لهذا الداء؟ كيف يقي الإنسان نفسه من داء البخل والشح؟

الجواب: العلاج من هذا المرض أن يعلم المسلم أنه ليس له من ماله إلا ما أنفقه في سبيل الله، كل نفقة أنفقتها فهي ذاهبة، إلا نفقة أنفقتها في سبيل الله، فهي باقية مدخرة لك عند الله، تجد ثوابها **﴿ يَومَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾**(١). عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه، حتى تكون مثل الجبل»(٢).

وقال ﷺ : «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»(٣)، وعن عائشة رضي الله عنها: أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ : «ما بقي منها؟» قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: «بقي كلها غير كتفها». ومعناه: تصدقوا بها إلا كتفها، فقال: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها»(٤).

وعلى المسلم أن يعلم أن الموت يأتي بغتة، وأنه إذا جاءه الموت وعاين الحقيقة طلب الرجعة لينفق ما ادخره، ويتصدق مما كنزه، وهيهات هيهات: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفعَل ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبلِ أَن يَأتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَولاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾**(٥).

---

(١) الشعراء ٨٨، ٨٩.
(٢) البخاري (١٤١٠/٢٧٨/٣)، مسلم (١٠١٤/٧٠٢/٢).
(٣) مسلم (٢٩٥٨/٧٣٢٢/٤).
(٤) الترمذي (٢٥٨٧/٥٨/٤).
(٥) المنافقون ٩ ـ ١١.

الصفة الرابعة: التوحيد

قال تعالى: ﴿ وعِبَادُ الرَّحمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرضِ هَوْنَاً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمَاً. . . الآيات إلى ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾(١).

فقول الله تعالى في وصف عباد الرحمن أئمة المتقين: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ نفي للشرك عن عباد الرحمن، كما صرح بذلك ربنا في آية أخرى حيث يقول: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ ﴾(٢). والنفي في مقام المدح يقتضي ثبوت ضد المنفى، فلما نفى عنهم الشرك كان ذلك النفي متضمناً لثبوت التوحيد.

فعباد الرحمن قوم موحِّدون، قوم أخلصوا دينهم لله، وأسلموا وجوههم له، وأقبلوا بقلوبهم عليه، فكل عمل صالح يصدر عنهم فإنما هو لله وحده. هذا هو معنى التوحيد، التوحيد إفراد الله بالعبادة، بحيث لا يعبد غيره، ولا يعبد هو مع غيره، فمن عبد غير الله أو عبد الله مع غيره ومات على ذلك فهو خالد مخلد في النار، ومن عبد الله وحده فأولئك هم الفائزون.

---

(١) الفرقان ٦٣ - ٦٨.
(٢) المؤمنون ٥٩.

والتوحيد بهذا المعنى هو الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، يقول تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[1]. ومن أجل هذه الغاية بعث الله الرسل وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[3].

ولذا كان التوحيد أول ما يصدع به الرسل على أقوامهم، والذي يقرأ القرآن يرى ذلك، اقرؤوا سورة الأعراف وسورة الشعراء تجدوا أن كل نبي قال لقومه «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره».

معشر المسلمين: إن الله تعالى قد أمرنا في أكثر من آية بإفراده بالعبادة، وحذرنا من الشرك وحرمه علينا، وبين أنه لا يغفر للمشركين، ولكنه قد يغفر ما دون الشرك لمن شاء: قال تعالى: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً** ﴾[4]. وقال: ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** ﴾[5]. وقال: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[6]. وقال: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً** ﴾[7]..

وبين سبحانه أن الشرك يحبط الأعمال، مهما كان صاحب العمل، حتى لو جاز الشرك على الأنبياء فصدر من أحدهم لحبط عمله، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ**

---

(١) الذاريات ٥٦.
(٢) النحل ٣٦.
(٣) الأنبياء ٢٥.
(٤) النساء ٣٦.
(٥) الإسراء ٢٣.
(٦) الأعراف ٣٣.
(٧) الأنعام ١٥١.

﴿لَيَحبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[1]. وقال تعالى في سورة الأنعام بعدما عدّ ثمانية عشر رسولاً من المرسلين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهدِي بِهِ مَن يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَو أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَّا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾[2].

فالشرك يا عبد الله يحبط الأعمال، ويجعل صاحبه من الأخسرين في الدنيا والآخرة ويوجب عليه كلمة العذاب، ولذا قال الله لرسوله ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً﴾[3]. ثم ذكر وصايا كثيرة، وختمها بما بدأها به فقال: ﴿وَلَا تَجعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾[4]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِينَ﴾[5].

فإذا كان هذا الخطاب من الله لرسوله؟ فما بالك بغيره؟ وحاشاه ﷺ أن يدعو مع الله إلهاً آخر، ولكنه تحذير للأمة في شخص نبيها ﷺ، لبيان أن الله لا يحابي أحداً إذا أشرك به مهما كان المشرك.

معشر المسلمين: إن التوحيد فضله عظيم، ومن مات على التوحيد فمآله الجنة إن آجلاً أو عاجلاً من مات على التوحيد دخل الجنة عاجلاً إن عفا الله عنه، وإن آخذه بذنوبه وعامله بعدله فدخل النار خرج منها يوماً ما، برحمة أرحم الراحمين، وشفاعة الشافعين. كما في الحديث: أن الله يأذن لنبيه ﷺ في إخراج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فيفعل رسول الله ﷺ، ثم يعود فيخر لله ساجداً، ويحمده بمحامد يلهمه الله إياها، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فيقول النبي ﷺ: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله،

---

(١) الزمر ٦٥.
(٢) الأنعام ٨٨.
(٣) الإسراء ٢٢.
(٤) الإسراء ٣٩.
(٥) الشعراء ٢١٣.

فيقـول: وعزتي وجـلالي، وكبريـائي وعظمتي، لأخـرجن منها من قـال لا إلـه إلا الله»[1].

فعلى العبد المسلم أن يحرص على التوحيد فإنه حق الله على العباد، كما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار، فقال: «يا معاذ. هل تدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»[2].

معشر المسلمين: إن التوحيد بهذا المعنى الذي عرفناه قسم من أقسام التوحيد، فقد قال العلماء: التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، أما توحيد الربوبية: فمعناه الاعتراف بأن الله وحده هو مالك الملك، وهو ربه، هو الخالق الرازق، المحيي، المميت، النافع، الضار، المانع، المعطي، وأنه المتصرف في هذا الكون، وأن كل ما يحدث في هذا الكون فهو ناتج عن إرادته ومشيئته سبحانه وتعالى.

وهذا التوحيد مشترك بين المسلم والكافر، فالمسلم مقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، وكذلك الكافر، قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾[3]. ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ؟؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** ﴾[4]. فكفار المشركين كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، ولكنهم كانوا إذا دعوا إلى توحيد

---

(١) البخاري (٧٥١٠/٤٧٣/١٣)، مسلم (١٩٣/١٨٢/١).
(٢) البخاري (٢٨٥٦/٥٨/٦)، مسلم (٣٠/٥٨/١).
(٣) الزخرف ٨٧.
(٤) يونس ٣١.

الألـوهية الـذي معناه إفـراد الخالق بـالعبـادة أنكـروا ذلـك ورفضـوه وقـالـوا: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً؟ إِنَّ هذا لشَيء عُجاب﴾[1].

ولكن المسلم لما اعترف بـأن الله وحده هـو الخالق، وأن الله وحـده هو الذي يرزق ويحيي ويميت، حمله هـذا على الاعتراف بتـوحيد الألـوهية وهـو أن الله وحده هو المستحق للعبـادة دون سواه، لأنـه ما دام خلق وحـده، وهو وحـده الـذي يـرزق ويحيي ويميت، كـان لا بـد أن يعبـد وحـده، وهـذا هـو الفرق بين المسلم والكافر.

أما توحيد الأسماء والصفـات فمعناه الاعتـراف بأن لله الأسمـاء الحسنى والصفـات العلا، وأنـه لا يجـوز أن يـوصف الله إلا بمـا وصف بـه نفسـه، أو وصفـه به رسـولـه، كمـا لا يجـوز إطـلاق اسم على الله، إلا إذا كـان الله قـد سمي بـه نفسه، أو سمـاه به رسـوله، ونحن في ذلـك كله على ما عليـه أهـل السنـة والجمـاعـة: نثبت لله ما أثبتـه الله لنفسـه من الأسمـاء والصفـات، في محكم كتابه أو على لسان رسولـه، من غير تحـريف ولا تأويـل ولا تكييف ولا تعطيل. ﴿ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[2].

(١) ص ٥.
(٢) الشورى ١١.

مظاهر الشرك في التوحيد

قلنا إنَّ التوحيد ثلاثةُ أقسام: توحيد الربوبيّة، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وقلنا إنَّ توحيد الألوهية هو التوحيد الذي من أجله خلق الله الخلق، وبه بعث رسله وأنزل كتبه، ومعناه إفراد الله بالعبادة، حتى لا يعبد غيره، ولا يعبد معه غيره. فما هي العبادة؟

العبادة اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، والمراد بالظاهرة أعمال الجوارح، والمراد بالباطنة أعمال القلوب. إنَّ القلوب مكلَّفةٌ بأعمالٍ كما أنَّ الجوارح مكلَّفةٌ بأعمال، ومن أعمال القلوب: الإيمانُ، المحبةُ، الإنابة، الرغبة، الرهبة، الخشية، الخوف، الرجاء، التوكل، كلُّ هذه الأعمال من أعمالِ القلوب عبادةٌ يجب أن تصرف إلى الله تعالى وحده.

ومن أعمال الجوارح الظاهرة: الصلاة، الصوم، الطواف، الذبح، النذر، تقبيل الحجر الأسود، واستلام الركن اليماني من البيت العتيق، وكلّ هذه الأعمال أيضاً عبادةٌ لا يجوز صرفها لغير الله.

كما أنَّ من عبادة القول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدعاء الاستغاثة، الاستعانة، وكلُّ هذه الأعمال أيضاً عبادةٌ يجب أن تصرف إلى الله وحده.

هذا على وجه الإجمال والإيجاز، فإذا أردنا التفصيل، لنضع الحقائق أمام المسلم حتى لا تزلَّ به قدمٌ فيهوي في الشرك من حيث لا يدري أو من حيث يدري، فإن الشرك أخفى على الناس من دبيب النمل على الصفا. إذا أردنا التفصيل نقول وبالله التوفيق:

اعلم يا عبد الله المسلم أنَّ من عبادة القلب الإيمان، والإيمان هو التصديق بوجود الله سبحانه، وأنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، وأنَّه الإله الحقُّ الذي يستحقُّ العبادة دون سواه، ومن لوازم هذا الإيمان الإيمان بكلِّ ما أمر الله بالإيمان به، كالإيمان بالملائكة، والنَّبيِّين، والكتب المنزَّلة على المرسلين، والإيمان باليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرِّه قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ، وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً** ﴾(1) فأيُّما رجلٍ أقرَّ بربوبيَّة غير الله، أو اعتقد أنَّ غير الله يستحق العبادة، فقد كفر، وأيُّما رجلٍ كفر بشيءٍ مما أمر الله بالإيمان به فقد كفر.

ومن عبادة القلب المحبَّة، المحبَّة من أعمال القلوب، عبادةٌ تعبَّدنا الله بها، فالواجب على كل مسلمٍ أن يقبل بكلِّيته على الله سبحانه، حتى يكون الله عزَّ وجلَّ هو الحبيب الذي يسكن حبُّه القلب، فيُقدّم محبته على محبة من سواه، ويحبّ لله كلَّ ما يحبُّه الله من العقائد والأقوال والأعمال الصالحة، كما يحبّ لله من يحبّه الله من الصالحين.

ولما كان الإنسان مفطوراً على حبّ الذات، وحبّ الآباء والأبناء، والأزواج والأموال، والأوطان، فإنّ معنى حبّك لله أن يكون الله أحبّ إليك من كل ما سواه، بحيث تؤثر رضا الله على رضا من سواه، قال تعالى:

(1) النساء ١٣٦.

﴿ قُل إنْ كَانَ آباؤُكم وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوانُكم وَأَزْواجُكم وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرضَونَهَا أَحَبَّ إليكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَومَ الفَاسِقِينَ ﴾(١). ولقد عاب الله على أقوام أحبُّوا غير الله كحبهم لله، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ ﴾(٢). فإذا كان الله عاب على من سوّى محبة غيره بمحبته فكيف بمن كان حبه لغير الله أعظم من حبِّه لله.

ومن عبادة القلب الإنابة، وهي الإقبال على الله تعالى، والتوبة إليه، والإنابة عبادةٌ قد أمر الله بها عباده، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾(٣). وأخبر أنه يهدي إليه من أناب، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه، فقال تعالى: ﴿ وَاتَّبِع سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ (٤).

ومن المعلوم أنَّ غير الله لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وإذا كان كذلك فكيف ينيب المسلم إلى غير الله يرجوه أن يحقّق له ما لا يقدر على تحقيقه لنفسه. ومن هنا كان من أناب إلى غير الله راجياً الخير منه، أو خائفاً من سخطه أو عقابه فقد أشرك.

ومن عبادة القلب التوكُّل: وهو الاستسلام لله، وتفويض الأمر إليه، اعتماداً ووثوقاً به، وقد أمر الله عباده بالتوكل عليه، فقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾(٥) وقال: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ ﴾(٦). وقال: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٧). ذلك

---

(١) التوبة ٢٤.
(٢) البقرة ١٦٥.
(٣) الزمر ٥٤.
(٤) لقمان ١٥.
(٥) الأحزاب ٣.
(٦) إبراهيم ٦.
(٧) المائدة ٢٣.

لأن الله وحده هو القادر على أن يكفي من يتوكل عليه جميع شؤونه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾(١). وقد تكفَّل سبحانه بكفاية المتوكلين عليه، فقال: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(٢). فليكن توكُّلك أيها المسلم على الله، فالله وحده القادر أن يكفيك شؤونك، ويقضي حوائجك، ويعطيك مسألتك. ومن توكل على غير الله، اعتماداً عليه، وثقةً به، فقد أشرك.

ومن عبادة القلب: الخشية والخوف: وقد أمر الله بخشيته، ونهى عن خشية غيره، فقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾(٣). كما أمر بالخوف منه ونهى عن خوف غيره، فقال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٤). فالواجب على المسلم أن لا يخاف إلا الله، ولا يخشى غيره، وقد وعد الله أهل خشيته بالمغفرة والفوز، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾(٥). وقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾(٦). فمن خاف غير الله، أو خشيه معظِّماً له مستكيناً، يذلّ له ويطيعه في معصية الله، وهو غير مكره على تلك الطاعة فقد أشرك بالله.

ومن عبادة القلب: الرجاء والرغبة: والرجاء هو الأمل في الخير، وترقُّب حصوله، وانتظاره ممَّن يملكه ويقدر على تحقيقه. والرغبة حب الخير وإرادته، والطمع في تحصيله ممن يملكه ويقدر على إعطائه وهبته. فهي مثل الرَّجاء، وكلاهما مما تعبدنا الله به، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾(٧). وقال عن

---

(١) الزمر ٣٦.
(٢) الطلاق ٣.
(٣) المائدة ٤٤.
(٤) آل عمران ١٧٥.
(٥) الملك ١٣.
(٦) النور ٥٢.
(٧) الكهف ١١٠.

زكريا وأهله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[1]. وأمر رسوله محمداً ﷺ بالرغبة إليه فقال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[2]. ولما كان الخير كلّه بيد الله، وليس بيد أحدٍ سواه، وكان الله وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده، كان رجاء الخير ورغبته من غير الله شركاً بالله عز وجل.

أما أعمال الجوارح الظاهرة: فمنها الصلاة، وأهم أركانها الركوع والسجود، لا تصحُّ صلاة رجلٍ ترك الركوع أو السجود، وقد أمر الله المؤمنين بهما فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3]. وأمر بهما مريم عليها السلام، فقال: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[4].

فالركوع عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، والسجود عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، فمن ركع لأحدٍ أو سجد له فقد أشرك بالله.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله: الرَّجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له قال: «لا». قال أفيلتزمه ويقبّله؟ قال: «لا» قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: «نعم»[5]. ولما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي ﷺ، فقال ﷺ: «ما هذا يا معاذ؟» قال: أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله ﷺ: «فلا تفعلوا، فإني لو كنت آمر أحداً أن يسجد لغير الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[6]. فمن ركع أو سجد لغير الله فقد أشرك.

(١) الأنبياء ٩٠.
(٢) الشرح ٧، ٨.
(٣) الحج ٧٧.
(٤) ال عمران ٤٣.
(٥) الترمذي (٢٨٧١/١٧٢/٤).
(٦) ابن ماجه (١٨٥٣/٥٩٥/١).

ومن أعمال الجوارح الطواف ببيت الله الحرام، إن الله تعبدنا بالطواف حول بيته، فقال: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾[1]. كما تعبّدنا باستلام الركنين اليمانيين، وتقبيل الحجر الأسود، فلا يجوز لمسلم أن يطوف بأيّ بناء؛ أو أن يتمسح بأيِّ جدار، أو يقبّل حجراً غير الحجر الأسود، فالذي يطوف بالقبور والقباب، ويقبّل العتبات، ويتمسح بالجدران والحديد المنصوب حول الضريح فقد أشرك.

ومن أعمال الجوارح الذبح، الذبح عبادةٌ أمرنا الله بها فقال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾[2]. وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[3]. ومن الذبائح المشروعة: الهدي، والأضاحي، والعقيقة، والوليمة، فلا يجوز الذبح لغير الله، فقد لعن رسول الله ﷺ من ذبح لغير الله، ومن الذبائح الغير مشروعة: الذبح عند بناء بيت، أو امتلاك سيارة، اتقاء الجن والعين، كثير من المسلمين إذا منَّ الله عليهم ببيتٍ أو سيارةٍ أو غير ذلك من النعم ذبحوا الذبائح، لا شكراً لله وتقرباً إليه، وإنما اتقاء الجن، وخوفاً من العين، ولذا ترى أحدهم إذا ذبح يذبح على عتبة البيت أو مقدمة السيارة، ويلطّخ البيت بالدماء، مما يشهد على أنه ذبح لغير الله، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك.

ومن أعمال الجوارح النذر: وهو التزام العبد ما لم يلزمه من الطاعات، أو هو التعهُّد بالقيام بشيء من العبادات تقرُّباً إلى الله تعالى، أو بشرط أن يقضي الله تعالى له حاجةً. والنذر مما تعبَّد الله تعالى به عباده، وقد أثنى على الموفين به فقال: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾[4]. وقال مرغّباً فيه: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ

(١) الحج ٢٩.
(٢) الكوثر ٢.
(٣) الأنعام ١٦٢، ١٦٣.
(٤) الإنسان ٧.

اللَّهَ يَعلَمُهُ ﴾[1]. وبناء على هذا فإنَّ من نذر لغير الله سواءٌ لحيٍّ أو ميِّتٍ فقد أشرك.

ومن العبادات القولية: الدعاء، الدعاء عبادة أمر الله بها المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعُوني أَسْتَجِبْ لَكُم إِنَّ الَّذِينَ يَستَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[3] وإنما كان الدعاء عبادةً لأنَّ فيه ذلَّةً وانكساراً وافتقاراً، وهذا هو حقيقة العبادة. فلا يجوز لمسلمٍ أن يدعو غير الله، أو يستغيث به، ومن العجيب أن تسمع بعض المسلمين يدعو وينادي غائباً، حياً كان هذا الغائب أو ميتاً، يدعوه، ويناديه، ويستغيث به، ويسأله أن يفرج كربه، وهذا كلُّه شركٌ بالله ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُواْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَستَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** ﴾[4].

ومن العبادات القولية الحلف، والحلف لا يجوز إلا بالله أو باسمٍ من أسمائه أو صفة من صفاته ولا يجوز بالشرف ولا بالآباء والأبناء، وقد قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أوْ أشرك»[5]

---

(١) البقرة ٢٧٠.

(٢) غافر ٦٠.

(٣) الترمذي (٤٠٤٩/٢٧٩/٤)، أبو داود (١٤٦٦/٣٥٢/٤)، ابن ماجه (٣٨٢٨/١٢٥٨/٢).

(٤) الأحقاف ٥، ٦.

(٥) الترمذي (١٥٧٤/٤٥/٣).

الصفة الخامسة: احترام الأرواح وعدم الاعتداء عليها.

إن من محاسن الإسلام أن شرع للناس ما تستقيم به حياتهم، وتتحقق به مصالحهم، بجلب النفع لهم، ودفع الضرر عنهم. وبالتأمل والنظر يتبين لنا أن مصالح الناس إنما تتكون من أمور ثلاثة: ضرورية، وحاجية، وتحسينية.

فأما الأمور الضرورية: فهي ما تقوم عليه حياة الناس، ولا بد منه لاستقامة مصالحهم، وإذا فُقِد اختل نظام حياتهم ولم تستقم مصالحهم، وعمت فيهم الفوضى والمفاسد.

وأما الأمور الحاجية: فهي ما يحتاج إليه الناس لليسر والسعة، واحتمال مشاق التكليف وأعباء الحياة، وإذا فُقِد لا يختل نظام حياتهم ولا تعم فيهم الفوضى كما إذا فقد الأمر الضروري، ولكن ينالهم الحرج والضيق.

وأما الأمور التحسينية: فهي ما يسمى بلغة العصر الكماليات، التي إن وجدت كانت الحياة أزكى وأسعد وأرغد، وإن فقدت لم تؤثر على سير الحياة واستقامتها.

ولقد شرع الإسلام لتحقيق هذه الأمور كلها أحكاماً في جميع

المجالات المختلفة ، وما ترك أمراً ضرورياً ، ولا حاجياً ، ولا تحسينياً ، إلا وقد شرع له من الأحكام ما يكفل إيجاده وتكوينه ، وما يكفل حفظه ودوامه .

وقد وجد بالاستقراء أن الأمور الضرورية ترجع إلى خمسة أشياء هي :

الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال .

فحفظ هذه الضروريات الخمس لا بد منه لاستقامة حياة الناس وتحقيق مصالحهم ، وإذا فقد واحد منها اختل نظام الحياة ، ولم تستقم مصالح الناس ، وعمت فيهم الفوضى والمفاسد .

أما الدين : فهو مجموعة العقائد والعبادات والأحكام والقوانين التي شرعها الله سبحانه لتنظيم علاقة الناس بربهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض. وقد شرع الإسلام لإيجاده وإقامته إيجاب الإيمان، وأحكام القواعد الخمس التي بُنِيَ عليها الإسلام، وأوجب الدعوة إليه، وتأمين الدعوة من الاعتداء عليها وعلى القائمين بها، ومن وضع عقبات في سبيلها. وشرع لحفظه وكفالة بقائه وحمايته من العدوان عليه أحكام الجهاد، لمحاربة من يقف عقبة في سبيل الدعوة إليه، كما شرع العقوبات لمن يرتد عن دينه، أو يبتدع في الدين ما ليس منه.

أما النفس: فقد شرع الإسلام لإيجادها الزواج للتوالد والتناسل، وبقاء النوع الإنساني على أكمل وجوه البقاء. كما شرع لحفظها وكفالة حياتها إيجاب تناول ما يقيمها من ضروري الطعام والشراب واللباس والسكن، وإيجاب القصاص والدية والكفارة على من يعتدي عليها، وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة، وإيجاب دفع الضرر عنها.

أما العقل: فإن الله سبحانه وتعالى قد أنعم به على الإنسان، وشرع لحفظه تحريم الخمر وكل مسكر، وعقاب من يشربها أو يتناول أي مخدر.

أما العرض: فقد شرع الإسلام لحمايته حد الزنا وحد القذف.

وأما المال: فقد شرع الإسلام لتحصيله وكسبه إيجاب السعي للرزق، وإباحة المعاملات والمبادلات والتجارة والمضاربة. وشرع لحفظه وحمايته تحريم السرقة وحد السارق، وتحريم الغش والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل وإتلاف مال الغير، وتضمين من يتلف مال غيره، والحجر على السفيه وذي الغفلة، ورفع الضرر، وتحريم الربا[1].

معشر المسلمين: كانت تلك مقدمة للدخول إلى موضوعنا الذي نحن بصدده الآن وهو الصفة الخامسة من صفات عباد الرحمن أئمة المتقين وهي حماية النفس وصيانتها وعدم الاعتداء على النفس البريئة بغير حق. قال تعالى في وصف عباد الرحمن:

﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ، وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾[2].

معشر المسلمين: إن الإسلام كما ذكرنا شرع لإيجاد النفس الزواج للتناسل والتكاثر، وشرع لحماية النفس تحريم الإلقاء بها إلى التهلكة. قال تعالى: **﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾**[3]. ونهى أن يقتل المرء نفسه فقال: **﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم ﴾**[4]. وتوعد من يخالف بقوله: **﴿ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾**[5].

وجعل قتل النفس حراماً، وقرنه بالشرك في أكثر من آية:

قال تعالى: **﴿ قُل تَعَالَوا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيكُم أَلاَّ تُشرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَبِالوَالِدَينِ إِحْسَاناً، وَلاَ تَقتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّن إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُم وَإِيَّاهُمْ، وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي**

(١) انظر أصول الفقه لخلاف (١٩٧ - ٢٠٤).
(٢) الفرقان ٦٨.
(٣) البقرة ١٩٥.
(٤) النساء ٢٩. (٥) النساء ٣٠.

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ ﴾[1].

وجعل الله تعالى قتل النفس البريئة بغير حق كقتل الناس جميعاً، فقال تعالى: ﴿ مِن أَجلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيرِ نَفْسٍ أَو فَسَادٍ فِي الأَرضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[2].

من هنا وجب على كل مسلم يخشى الله ويخاف عذابه، أن يصون حرمات الناس، وأن يعلم أنه لا يجوز له الاعتداء على أحد في نفسه أو ماله أو عرضه، فلقد كان رسول الله ﷺ يخطب فيقول: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». هكذا جاء عنه ﷺ في خطبة الوداع[3].

ولقد توعد الله القاتل بأقسى أنواع العقوبة وأشد أنواع العذاب، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَلَعَنَهُ، وأَعَدَّ لهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[4]. فحكم الله على القاتل بأحكام أربعة، وعقوبات أربع، كل عقوبة أشد وأقسى من أختها:

الأولى: ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾. فيا ويله من جهنم، يا ويله من دار طعامه فيها الزقوم، وشرابه الحميم، ولباسه من قطران، يا ويله من ﴿ نَارُ اللَّهِ المُوقَدَة. الَّتِي تَطلعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾[5]، ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾[6]، ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ ﴾[7].

يا ويله من نار حامية، فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً، كما

---

(١) الأنعام ١٥١.
(٢) المائدة ٣٢.
(٣) الترمذي (٤/٢٣٧/٥٠٨٢).
(٤) النساء ٩٣.
(٥) الهُمَزَةُ ٦، ٧.
(٦) الإسراء ٩٧.
(٧) النساء ٥٦.

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية. قال: «لكنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلّها مثل حرّها»(١).

العقوبة الثانية: غضب الله، ويا خسارة تجارته، بئس لعبد يجلب لنفسه سخط الله وغضبه.

العقوبة الثالثة: لعنة الله، ومعناها الطرد من رحمته سبحانه.

العقوبة الرابعة: «وأعد له عذاباً عظيماً».

معشر المسلمين: إن سفك الدماء البريئة بغير حق جريمة نكراء، جريمة عظيمة عند الله سبحانه، حتى جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»(٢). وقال ﷺ: «لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبهم الله عزَّ وجل في النار»(٣).

تلك هي عقوبة القاتل في الآخرة، أما عقوبته في الدنيا فهي القصاص، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى، الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ، ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**(٤). ثم قال مبيناً حكمة مشروعية القصاص: **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**(٤).

---

(١) البخاري (٣٢٦٥/٣٣٠/٦)، مسلم (٢٨٤٣/٢١٨٤/٤)، الترمذي (٢٧١٥/١١٠/٤).
(٢) ابن ماجه (٢٦١٩/٨٧٤/٢).
(٣) الترمذي (١٤١٩/٤٢٧/٤).
(٤) البقرة ١٧٨، ١٧٩.

ذلك أن الرجل حين يهم بقتل امرىء ويعلم أنه مقتول به، حَالَ عِلْمُهُ هذا بينه وبين ما أراد، فإن غلبته نفسه وشيطانه فقَتَلَ ثم قُتِل، كان قتله ردعاً لغيره ممن تحدثه نفسه بسفك دماء الناس بغير حق.

معشر الإخوة: تلك هي عقوبات القاتل غيره، فما جزاء الذي يتعدى على نفسه هو فيقتلها؟ ما جزاء الانتحار؟ ما جزاء الذي يتعجل الموت لنفسه فيتعاطى من الأسباب ما يزهق روحه ويذهب بنفسه؟

إن الانتحار جريمة عظيمة، وعقوبته أليمة، جاء في الحديث عن النبي ﷺ : «من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن تحسى سُمّاً فقتل نفسه، فسُمُّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»(١).

وقال ﷺ : «كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح، فجزع، فأخذ سكيناً فَحَزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: «بادرني عبدي بنفسه، فحرمت عليه الجنة»(٢).

وعن جابر: أن الطفيل بن عمرو الدوسي لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه وهاجر معه رجل من قومه، فمرض فجزع، فأخذ مشاقص له، فقطع بها براجمه، فشخبت يداه حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه وهيئته حسنة، ورآه مغطياً يديه، فقال له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ . فقال: مالي أراك مغطياً يديك؟ قال: قيل لي: لن نصلح منك ما أفسدت. فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم وَلِيَدَيْهِ فاغفر»(٣).

---

(١) البخاري (٥٧٧٨/٢٤٧/١٠)، مسلم (١٠٩/١٠٣/١)، الترمذي (٢١١٦/٢٦٠/٣)، النسائي (٦٧/٤).

(٢) البخاري (٣٤٦٣/٤٦٩/٦)، مسلم (١١٣/١٠٧/١).

(٣) مسلم (١١٦/١٠٨/١).

معشر المسلمين: تلك هي عقوبات القاتل غيره أو نفسه عمداً، فما هي عقوبة القتل الخطأ؟ والقتل الخطأ تفسيره: أن يرمي الإنسان برصاصة غرضاً فيصيب رجلاً فيقتله، أو يصيبه بسيارته فيقتله. والقتل الخطأ يتعلق به حقان: الحق الأول ـ حق أولياء المقتول. والحق الثاني ـ حق الله عزَّ وجل.

أما حق أولياء المقتول: فدية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا.

وأما حق الله: فتحرير رقبة مؤمنة، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

فحق أولياء المقتول: لهم أن يتصدقوا به، ولهم أن يأخذوه، فإذا تصدقوا به بقي حق الله لا يسقط وهو تحرير رقبة مؤمنة، فإن لم يجد صام شهرين متتابعين: قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوم بَينَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرِين مُتَتَابِعَيْنِ تَوبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾(1).

هل للقاتل العامد توبة؟

ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن القاتل العامد لا توبة له، وجزاؤه ما ذكر في الآية: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾** (2).

وذهب جمهور العلماء إلى أن قاتل العمد إن تاب تاب الله عليه، لقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**(3). والقتل دون الشرك فهو راجع إلى مشيئة الله، كما استدلوا بقوله

---

(1) النساء ٩٢.

(2) النساء ٩٣.

(3) النساء ٤٨.

تعـالى: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَـرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَامَـاً. يضاعَفْ لَـهُ العَذَابُ يَـومَ القِيَـامَةِ وَيَخْلُدْ فِيـهِ مُهَانـاً. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَـنَ وَعَمِـلَ عَمَلاً صَـالِحاً فَـأُولٰئِكَ يُبَـدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَـاتِهِمْ حَسَنَـاتٍ وَكَـانَ اللَّهُ غَفُـوراً رَّحِيمـاً ﴾[1]. كمـا استـدلـوا بحديث قاتل المائـة ـ الذي ذكـرناه مـراراً ـ الذي تـاب فتاب الله عليـه، ولما مات أثناء هجرته وقع أجره على الله وقبضته ملائكة الرحمة فدخل الجنة[2].

قالوا: فإذا كان هـذا فعل الله مـع غيرنـا من الأمم فكيف بنا ونحن خيـر الأمم، وقـد حط الله عنا مـا حمّلهم، فـالصحيـح أن من قتـل عمـداً ثم تـاب تاب الله عليه، و«الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»[3]. ورحمته وسعت كل شيء.

---

(١) الفرقان ٦٨ ـ ٧٠.
(٢) البخاري (٦/٥١٢/٣٤٧٠)، مسلم (٤/٢١١٨/٢٧٦٦).
(٣) مسلم (٤/٢١١٣/٢٧٥٩).

الصفة السادسة: صيانة الأعراض وحفظ الفروج

إن الاعتداء على العرض كالاعتداء على النفس، كلٌّ حرام، «كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه»(١). ولقد كان من جملة خطبة النبي ﷺ في خطبة الوداع قوله: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»(٢). ولذا فإن أئمة المتقين عباد الرحمن قد وقفوا عند حدود الله فلم يتعدوها، لم تزهق على أيديهم أرواح بريئة بغير حق، ولم يكشفوا عن فرج حُرم عليهم، ولذا قال الله عنهم: ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ** ﴾(٣).

معشر المسلمين: إن الزنا من أكبر الكبائر بعد الكفر بالله والشرك به، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، قال تعالى: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ**

(١) مسلم (٢٥٦٤/١٩٨٦/٤).
(٢) سبق قريباً.
(٣) الفرقان ٦٨.

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1]. وعن ابن مسعود أنه سأل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قال: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك» [2].

ولقد نهى الله عن الزنا صراحة، فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [3]. وقد بين الرسول ﷺ أن الزنا إذا شاع في قوم جلب لهم سخط الله وغضبه **وعقابه**، وكان سبباً في انتشار الأسقام والأوجاع التي لم **تكن** فيمن قبلهم فيهم، فقال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قوم فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[4]. وقال ﷺ:

«يا معشر المهاجرين: خصال خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن فيمن قبلهم»[5]. كما جعل الرسول ﷺ انتشار الفاحشة وظهور الزنا علامة من علامات الساعة، وإشارة من الإشارات التي تؤذن بخراب الدنيا وفناء العالم: فقال ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، ويشرب الخمر، ويذهب الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد»[6].

ولما كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ خرج وصلى بالناس ثم خطبهم، فكان مما قال: «يا أمة محمد، والله لا أحد أغير من الله أن تزني أمته أو يزني عبده، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً

---

(١) الأنعام ١٥١.
(٢) البخاري (٤٧٦١/٤٩٢/٨)، مسلم (٨٦/٩٠/١)، أبو داود (٢٢٩٣/٤٢٢/٦)، الترمذي (٣٢٣٤/١٨/٥).
(٣) الإسراء ٣٢.
(٤) الحاكم (٣٧/٢).
(٥) ابن ماجه (٤٠١٩/١٣٣٢/٢).
(٦) البخاري (٥٢٣١/٣٣٠/٩)، مسلم (٢٦٧١/٢٠٥٦/٤)، الترمذي (٢٣٠١/٣٣٣/٣)، ابن ماجه (٤٠٤٥/١٣٤٣/٢).

ولبكيتم كثيراً، اللهم قد بلغت اللهم فاشهد»[1].

قال العلماء: لقد أشار رسول الله ﷺ بقوله هذا في تلك الخطبة إلى ما ذكره في الحديث السابق، أن من أشراط الساعة أن يفشو الزنا، فلما كسفت الشمس، وكان كسوفها من علامات فناء العالم وخرابه، فلما خطب ذكر الزنا، وفي ذكره الزنا في تلك الخطبة إشارة ضمنية إلى أن الزنا أيضاً إذا شاع وذاع فقد أزفت الآزفة.

معشر المسلمين: إن الزنا حرام، وإن الزنا من أكبر الكبائر، وإن الزنا يجلب لصاحبه غضب الله وسخطه وعقابه في الدنيا والآخرة، والزنا تتفاوت درجاته، ويختلف إثمه باختلاف المزني بها، فليس الزنا بكل النساء على درجة واحدة في الإثم، وإنما يتفاوت إثمه من امرأة إلى امرأة:

فالزنا بالبكر ليس كالزنا بالثيب، والزنا بالجارة ليس كالزنا بالبعيدَة، والزنا بذات المحرم ليس كالزنا بالأجنبية، والزنا بزوجة من خرج في سبيل الله ـ كمن خرج مجاهداً، أو خرج في طلب العلم ونحو ذلك ـ ليس كالزنا بزوجة المقيم في أهله. وقد جاء في هذا أحاديث منها: قوله ﷺ: «ما تقولون في الزنا؟ قالوا: حرام، حرّمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة فقال ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة خير له من أن يزني بامرأة جاره»[2].

وذلك لأن حق الجار على جاره عظيم، ولقد وصى الله بالجار وأمر بالإحسان إليه صراحة، فقال: **﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾**[3].

---

(١) البخاري (١٠٤٤/٥٢٩/٢)، مسلم (٩٠١/٦١٨/٢)، النسائي (١٣٢/٣).
(٢) أحمد (١٨٧/٧١/١٦).
(٣) النساء ٣٦.

أما وصايا رسول الله بالجار فكثيرة: منها قوله ﷺ : «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1].

فإذا كان هذا هو حق الجار، ثم يأتي الجار فيخون جاره، ويدنس فراشه، وينتهك عرضه، **فحُقّ** له أن يضاعف له العذاب. لقد كان العرب قديماً يعرفون للجار حقه، فكانوا يصونون حرمات الجار، ويحفظون عرضه، حتى أثر في أشعارهم قول قائلهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مثواها

هذا كان شعارهم، وأما نحن فقد صار شعارنا:

وأرسل طرفي إن بدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مثواها

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى». ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «ما ظنكم؟»[2]. أي ما ظنكم بهذا الذي أذن له أن يأخذ من حسنات من خانه في أهله ما شاء حتى يرضى؟ أتظنون أن يترك له شيئاً من حسناته، في يوم يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى حسنة واحدة؟.

معشر المسلمين: إن الزنا من أعظم الجرائم، وأكبر الفواحش، ولذا كانت عقوبته في الدنيا أقسى العقوبات، وعذابه في الآخرة أشد العذاب.

أما عقوبته في الدنيا: فقد قال تعالى: **﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ**

---

(١) البخاري (٦٠١٤/٤٤١/١٠)، مسلم (١٦٢٤/٢٠٢٥/٤)، أبو داود (٥١٢٩/٦١/١٤)، الترمذي (٢٠٠٨/٢٢٤/٣)، ابن ماجه (٣٦٧٣/١٢١١/٢).

(٢) مسلم (١٨٩٧/١٥٠٨/٣).

وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١). فحد الزاني أن يجلد مائة جلدة، من غير رأفة ولا شفقة ولا رحمة، وأن يكون هذا أمام جماعة من المؤمنين، ليكون في ذلك تشهيراً بالزاني، وكشفاً لسره، وفضحاً لأمره، ثم يكون جلده ردعاً لغيره ممن تزين له نفسه الفاحشة، ثم يغرّب عاماً، ليلقى عذاب الروح بالغربة وبالبعد عن الأهل، كما أخذ ظهره حظه من العذاب بالسياط. هذا إذا كان الزاني غير محصن، والمحصن من سبق له الزواج، سواء كانت زوجته تحته أم لا، فإن زنا الرجل بعد إحصان فحده الرجم بالحجارة حتى يموت، وكذا المرأة. ولقد كان الرجم آية في كتاب الله **﴿ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عزيز حكيم﴾**. فنسخ لفظ الآية، وبقي حكمها معمولاً به، فرجم النبي ﷺ، ورجم خلفاؤه من بعده، فلا يقولن أحد: لا نجد في كتاب الله الرجم.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب فقال: إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده؛ فأخشى إن طال بالناس الزمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم حق في كتاب الله على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف (٢).

فمن ارتكب هذه الفاحشة فأقيم عليه الحد كان كفارة له، لأن الله أرحم من أن يجمع على عبده بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، ومن لم يقم عليه الحد ثم تاب من بعد ذلك، وأصلح تاب الله عليه، ومن فعل ذلك ولم يُقَمْ عليه الحد، ثم مات من غير توبة، فإن جزاءه ما ذكره الله تعالى

---

(١) النور ٢.
(٢) البخاري (٦٨٣٠/١٤٤/١٢)، مسلم (٦٩١/١٣١٧/٣)، الترمذي (١٤٥٦/٤٤٢/٢)، ابن ماجه (٢٥٥٣/٨٥٣/٢).

في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ يَلْقَ أَثاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾[1].

وروى البخاري في صحيحه في كتاب الرؤيا من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم من رؤيا»؟ قال: فيقص عليه ما شاء الله أن يقص. وإنه قال ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي انطلق. وإني انطلقت معهما». فذكر حديثاً طويلاً وفيه «فانطلقنا فأتينا على مثل التنور فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا. فقلت لهما: ما هؤلاء؟ «فقالا: «هم الزناة والزواني»[2].

يا معشر المسلمين: إياكم والزنا، ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾[3]. واجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. واحفظوا فروجكم كما أمركم ربكم، فإن الله قد أمر بحفظ الفروج فقال: ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِن أَبْصَارِهِمْ وَيَحفَظُوا فُرُوجَهُم ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُم إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصنَعُونَ. وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغضُضنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحفظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[4].

وبين سبحانه أن حفظ الفروج سبب لمغفرة الذنوب، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُم

(١) الفرقان ٦٨، ٦٩.
(٢) البخاري (١٢/٤٣٨/٧٠٤٧).
(٣) الأنعام ١٢٠.
(٤) النور ٣٠، ٣١.

وَالحَـافِظَاتِ وَالـذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيـراً وَالـذَّاكِـرَاتِ أَعَـدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيماً ﴾[1].

كما وعد الله سبحانه الحافظين فـروجهم بالسعـادة والنجاح والفـلاح في الـدنيا والآخـرة، فقال تعـالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُـونَ. الَّذينَ هُمْ فِي صَـلاَتِهِم خَـاشِعُونَ. وَالَّـذِينَ هُم عَنِ اللَّغوِ مُعْـرِضُـونَ. وَالَّـذِينَ هُم لِلزَّكَـاةِ فَـاعِلُونَ. وَالَّـذِينَ هُمْ لِفُـرُوجِهِمْ حَـافِظُونَ. إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَـا مَلَكَت أَيْمَـانُهُمْ فَـإِنَّهُمْ غَيرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِـكَ فَأُولئِـكَ هُمُ العَادُونَ. وَالَّـذينَ هُم لأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّـذِينَ هُم عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِـظُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ. الَّـذِينَ يَرِثُـونَ الفِردَوْسَ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ ﴾**[2]. فتضمنت الآيات وعداً للحافـظين فروجهم بـالفلاح والنجـاح في الدنيـا والآخرة، كمـا تضمنت وعيـداً لغيـر الحـافـظين فـروجهم بـأنهم ليسـوا من المفلحين، وإنمـا هم من العـادين الملومين. فالله الله عبـاد الله «كـل المسلم على المسلم حـرام، دمـه وماله وعرضه»[3]. صونوا أعـراض المسلمين ولا تنتهكوهـا، فقد علمتم جـزاء من يتعـدى على أعراض النـاس وينتهكها، وفي هـذا ذكرى لمن كـان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) الأحزاب ٣٥.
(٢) المؤمنون ١ ـ ١١.
(٣) سبق قريباً.

أسباب الزنا وطرق الوقاية منه

قلنا إن الزنا مرض خطير، إذا فشا في قوم فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله، فإذا كان الزنا مرضاً فما هي أسبابه؟ وما هي طرق الوقاية منه؟ وللجواب نقول وبالله التوفيق: إن الله تعالى حين نهى عن الزنا لم يقل: حُرِّم عليكم الزنا، كما قال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُم المَيْتَةُ ﴾[1]. وإنما قال: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[2]. فقوله: «**ولا تقربوا الزنا**» أبلغ في النهي، لأنه لا ينهى عن تلك الفاحشة وحدها، وإنما ينهى عن الاقتراب من كل ما يقرب منها، لأن اللقاء المحرم بين الرجل والمرأة لا يتم عفواً، وإنما تسبقه خطوات من خطوات الشيطان، عبر عنها القائل بقوله:

نظرة، فابتسامة، فسلام فكلام، فموعد، فلقاء

وهذا هو السر في النهي عن الزنا بهذا اللفظ «ولا تقربوا الزنا» فنهى عن مجرد الاقتراب منه، فإن البعد عن وسائله فيه ضمان لعدم الوقوع فيه، والاقتراب من وسائله لا يكون معه ضمان، ولذا حرم الإسلام الوسائل المؤدية إلى الزنا، واعتبر للوسائل حكم المقاصد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على

(١) المائدة ٣.
(٢) الإسراء ٣٢.

ابن آدم نصيبه من الزنا، مُدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجْل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه»[1].

من هنا نفهم أن الإسلام حين حرم الزنا حرم كل ما يؤدي إليه: من نظرة إلى أجنبية، أو خلوة بها، كما نهى المرأة أن تبدي زينتها أمام الأجانب، وغير ذلك، مما حرمه الإسلام سداً للذريعة وإغلاقاً لباب الفتنة.

ثم حث الإسلام على الزواج ورغب فيه، لأن الزواج هو السبيل الوحيد، وهو الطريق الأقوم لإشباع تلك الغريزة، التي هي أقوى غريزة في الإنسان، حث الإسلام على الزواج ورغب فيه، واعتبر ابتغاء إشباع هذه الغريزة من غير هذا السبيل ظلماً ومجاوزة لحدود الله، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ﴾[2].

إذن أسباب الزنا تتمثل في النظر إلى الأجنبية، والاختلاط بها، والحديث معها، والخلوة بها، هذه هي أسبابه. وطرق الوقاية منه: الابتعاد عن هذه الأسباب، وتيسير أمر الزواج لأنه أقوم الطرق لإشباع هذه الغريزة التي هي أقوى الغرائز في الإنسان.

هذا هو الجواب على سبيل الإيجاز. أما التفصيل فنقول:

إن الإسلام أمر النساء أن يَقَرْنَ في بيوتهن، وأن لا يخرجن إلا للضرورة، قال تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** ﴾[3]. بل إن الإسلام - تشجيعاً للمرأة على البقاء في بيتها - جعل صلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، وذلك أن بقاءها في بيتها أطهر لقلبها وقلوب الرجال. أما إذا

---

(١) مسلم (٢٦٥٧/٢٠٤٧/٤)، واللفظ له، البخاري (٦٣٤٣/٢٦/١١)، أبو داود (٢١٣٨/١٨٨/٦).

(٢) المؤمنون ٥ - ٧.

(٣) الأحزاب ٣٣.

أرادت المرأة الخروج لحاجة ضرورية، أو إلى المسجد، فلا يمنعها الإسلام من ذلك، ولكنه يشترط لخروجها شروطاً تضمن لها سلامتها ذهاباً وإياباً، من هذه الشروط أن ترتدي الجلباب الشرعي، ولا يكون جلباباً شرعياً حتى تتوفر فيه ثمانية شروط[1]:

الأول: أن يكون طويلاً سابغاً، يستر جميع جسدها حتى ظهور قدميها.

الثاني: أن يكون واسعاً لا يصف.

الثالث: أن يكون ثخيناً لا يشف.

الرابع: أن لا يكون ثوب شهرة.

الخامس: أن لا يكون زينة في نفسه.

السادس: أن لا يشبه لباس الرجال.

السابع: أن لا يشبه لباس الكافرات.

الثامن: أن لا يكون مطيباً ولا مبخراً.

فإذا توفرت هذه الشروط في جلباب المرأة فلا بأس أن تخرج للضرورة.

فإذا خرجت فأين تسير؟ وكيف تسير؟ أتسير وسط الشارع تزاحم الرجال وتختلط بهم؟ أتسير تتبختر وتتثنى، يدها في يد زميلتها ترتفع أصواتهما بالضحكات؟ لا. لا. إذا خرجت المرأة فعليها أن تمشي على استحياء في جانب الطريق، كما أمرها النبي ﷺ، عن أبي أسيد قال:

«خرج رسول الله ﷺ يوماً من المسجد فرأى النساء قد اختلطن بالرجال، فقال لهن: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْنَ الطريق، عليكن بحافة الطريق». ومعنى «ليس لكن أن تحققن الطريق» أي ليس لكن السير وسط الطريق، عليكن بحافة الطريق. قال الراوي: فكانت المرأة بعد ذلك تلتصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليعلق بالجدار من شدة التصاقها به[2].

---

(١) انظر حجاب المرأة للألباني وروائع البيان للصابوني.

(٢) أبو داود (٥٢٥٠/١٩٠/١٤).

وعليهـا أن تغضض من صوتهـا، وأن تغض من بصـرهـا، فـلا تقلب عينيها في الرجال الأجانب فـإن النساء مـأمورات بغض البصـر كما أن الرجال مـأمورون بـه، قال تعـالى: ﴿ قُـلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِن أَبْصَـارِهِم وَيَحفَـظُوا فُـرُوجَهُم، ذَلِـكَ أَزْكَى لَهُم إِنَّ اللَّهَ خَبِيـرٌ بِمَـا يَصنَعُـونَ. وَقُـلْ لِّلْمُؤْمِنَـاتِ يَغضُضْنَ مِن أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُـرُوجَهُنَّ . . . ﴾[1] وفي تقديم الأمـر بغض البصـر على الأمر بحفظ الفـروج إشارة إلى أن غض البصـر من أسبـاب حفظ الفروج، وعدم الغض من البصر من أسباب عدم حفظ الفروج، وقد قيل:

كـل الحـوادث مبـداهـا من النـظر ... ومعـظم النـار من مستصغـر الشـرر

والـمـرء مـا دام ذا عيـن يقـلبـهـا ... في أعين الغِيدِ موقـوف على الخطر

ولـذا نهى النبي ﷺ عن النظرة، فقـال لعلي: «يا علي، لا تتبـع النظرة النـظرة، فإن لـك الأولى وعليـك الثـانيـة»[2]. وسئـل ﷺ عن نـظر الفجـأة؟ فقال: «اصرف بصرك»[3]

ومن أسباب الزنا: هذا الاختلاط المستهتر، الذي انتشر في بيوت كثير من الناس، يأتي الـزائر بـأهله وأولاده، ذكوراً وإنـاثاً، صغـاراً وكباراً، فيستقبله صـاحب البيت بمثـل من جـاء بهم، ويجلس الجميـع في مكـان واحـد، ويتبادلون الحديث، وربما انفرد كل رجل وامرأة بمكـان للحديث، والشيـطان يجري من ابن آدم مجرى الـدم، ولذا حـرم الإسلام هـذا الاختلاط، فقـال: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُـوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[4] وهـذا الأمر في حق من؟ في حق أزواج النبي ﷺ، أمهـات المؤمنـين، وهـن محـرمـات عـلى المؤمنين ﴿ وَمَـا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُـولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنكِحُـوا أَزْوَاجَـهُ مِنْ

---

(١) النور ٣٠، ٣١.

(٢) الترمذي (٢٩٢٧/١٩١/٤)، أبو داود (٢١٣٥/١٨٦/٦).

(٣) مسـلم (٢١٥٩/١٦٩٩/٣)، أبـو داود (٢١٣٤/١٨٦/٦)، التـرمـذي (٢٩٢٦/١٩١/٤).

(٤) الأحزاب ٥٣.

بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾[1]. ومع هذا كله أمر الله المؤمنين إن كانت لهم حاجة من أزواج النبي أن لا يدخلوا عليهن، وأن يسألوهن حاجتهم من وراء حجاب، وعلل ذلك بقوله: ﴿ **ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ** ﴾[1]. فإذا كان هذا في حق أصحاب محمد وأمهات المؤمنين فما ظنكم بغيرهم؟!.

فعلى الرجال أن يغاروا على نسائهم، وأن يمنعوهن من الاختلاط بالرجال في البيت أو في أي مكان، فقد نهى النبي ﷺ عن الدخول على النساء فقال: «إياكم والدخول على النساء». فقال رجل: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ فقال: «الحمو الموت»[2]. إن الهلاك والخراب والدمار إنما يكون من جراء هذه الفوضى وتلك الإباحية، وإنما يكون من حسن الظن الذي يفرضه كثير من الناس في نسائهم وأصدقائهم، فترى الرجل حين يسمع النهي عن الاختلاط يقول: زوجي وأنا أدرى بها! صديقي وأنا واثق من أمانته ودينه! والإسلام حين يشرع فإنما يشرع أحكاماً عامة، بغض النظر عن صلاح المرأة الفلانية وتقوى الرجل الفلاني، وعلى المسلمين السمع والطاعة، ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا** ﴾[3].

ومن أسباب الزنا تلك الأفلام الخليعة التي ما تركت شيئاً مما يكون بين الرجل والمرأة إلا وعرضته، وتلك الأغاني الماجنة التي ما تركت جزءاً من جسد المرأة إلا ووصفته، وقد غزت ـ وللأسف ـ هذه الأفلام وتلك الأغاني البيوت كلها ـ «إلا من رحم ربك» ـ وعلى ذوي الغيرة، وعلى ذوي الشرف، وعلى ذوي الشهامة أن يغاروا على أهل بيتهم، وأن يطهروا البيوت من هذه الأجهزة الهدامة، التي هي من أكبر عوامل انتشار الفاحشة، فليتقوا

---

(١) الأحزاب ٥٣.

(٢) البخاري (٥٢٣٢/٣٣٠/٩)، مسلم (٢١٧٢/١٧١١/٤)، الترمذي (١١٨١/٣١٨/٢).

(٣) الأحزاب ٣٦.

الله وليعلموا أنهم مسئولون عن كل ما يكون في بيوتهم، كما قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل في بيته راع وهو مسئول عن رعيته»[1]. وقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُم نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2].

معشر المسلمين: إن الغريزة الجنسية في الإنسان هي أكبر الغرائز وأشدها عليه، وإذا كان الإسلام حرم على المسلم إشباع غريزته في الحرام، فلا بد إذن أن نفسح الطريق المباحة التي شرعها الله لإشباع هذه الغريزة، وهي الزواج، أمام من يريد الزواج.

إن مما يؤسف له أن أولياء الأمور اعتبروا بناتهم سلعاً تباع وتشترى، فأخذوا يتنافسون في رفع أسعار هذه السلع بالمغالاة في المهور، ولذا زهد الشباب في الزواج ورغبوا عنه وكثرت العوانس في البيوت، فعلى أولياء الأمور أن يتقوا الله في بناتهم، ثم في شباب المسلمين وأن يزيحوا تلك العقبة من طريق الزواج، وأن يخففوا المهور، وأن يعلموا أن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة، وعليهم أن يعلموا أن الله تعالى رغب في نكاح الفقراء عسى الله أن يجعل للرجل من زواجه سبباً في سعة الرزق، فقال تعالى: ﴿ وَأَنْكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

وعلى الشباب أن يسعوا إلى الزواج إن وجدوا إليه سبيلاً، وليعلموا أن الله أخذ على نفسه العهد أن يعينهم، كما قال النبي ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح

---

(١) البخاري (٢/٣٨٠/٨٩٣)، مسلم (٣/١٤٥٩/١٨٢٩)، الترمذي (٣/١٢٤/١٧٥٧)، أبو داود (٨/١٤٦/٢٩١٢).
(٢) التحريم ٦.
(٣) النور ٣٢.

الـذي يـريـد العفـاف»[1]. فمن لم يجـد فعليـه بـالصـوم حتى يغنيــه الله من فضله، كمـا قـال النبي ﷺ : «يـا معشـر الشبـاب من استـطاع منكم البـاءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصـوم فإنـه له وجاء»[2]. وقال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّـذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَـاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[3].

وأخيـراً أَنْصَحُ كـل أب أن يُحَفِّظَ أهل بيتـه جميعاً سـورة النور وأن يقـرأ لهم تفسيرها، فـإن هذا الـذي ذكرنـاه إنما هـو بعض ما جـاء في هذه السـورة الكريمة.

(١) الترمذي (١٧٠٦/١٠٣/٣)، ابن ماجه (٢٥١٨/٨٤١/٢)، النسائي (٦١/٦).
(٢) البخاري (١٩٠٥/١١٩/٤)، مسلم (١٤٠٠/١٠١٨/٢)، ابو داود (٢٠٣١/٣٩/٦)، الترمذي (١٠٨٧/٢٧٢/٢)، النسائي (١٦٩/٤).
(٣) النور ٣٣.

الصفة السابعة: صيانة النفس عن اللغو والزور

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾[1].

تطلق الشهادة ويراد بها الحضور. يقال: شهد فلان الصلاة. أي حضرها.

ومنه قوله تعالى يمتنُّ على الوليد بن المغيرة بما أنعم عليه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾[2]. أي حضوراً أنعم الله على الوليد بمال كثير، فكان الناس يضربون له في الأرض بماله، وأولاده شهود عنده حضور، لا يفارقونه، يتمتع بهم ويتمتعون به.

وتطلق الشهادة ويراد بها الإخبار. فكل مخبر بخبرٍ فهو شاهد به.

ومنه قوله تعالى عن المشركين: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُم ؟! سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُم وَيُسْأَلُونَ ﴾[3].

فقوله تعالى: ﴿ أشهدوا خلقهم﴾ إنكار على هؤلاء المشركين الذين

(١) الفرقان ٧٢.
(٢) المدثر ١١ ـ ١٣.
(٣) الزخرف ١٩.

زعموا أن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناث وأنهم بنات الله. وأخبر أنهم لم يحضروا خلقهم ولم يشاهدوه ولم يطلعوا عليه، فكيف يشهدون هذه الشهادة. ثم قال: ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ فجعل حكمهم وخبرهم شهادة، وإن لم يصرحوا هم بلفظ الشهادة. فكل مخبر خبراً فهو شاهد به وإن لم يتلفظ بلفظ الشهادة.

إذا عرفنا هذا، فقول الله تعالى: ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ أي لا يحضرونه، ولا ينظرون إليه، ولا يجلسون في مجلسه، وهم أيضاً لا يتكلمون به، ولا ينطقونه.

أما الزور فهو اسم عام يشمل كل معصية.

وعباد الرحمن لا يشهدون الزور: أي لا يحضرون مجالسه، ومنها: المجالس التي يشرك فيها بالله عزَّ وجل، ومجالس الكذب، والغيبة، والنميمة، والخوض في آيات الله، والاستهزاء بها، ومجالس الغناء، والرقص، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وشهود أعياد المشركين، ونحو ذلك.

وعباد الرحمن حين يجتنبون هذه المجالس، فإنما يجتنبونها لأنها مجالس موبوءة، تنتقل العدوى من أهلها إلى جلسائهم وإن لم يكونوا منهم. فالذي يشهد مثل هذه المجالس لا بد أن يفقد غيرته على الدين والحمية له، ولا بد أن يألف قلبه المنكر حتى يتعوَّده، ولا يعود ينكره بعد ذلك إذا رآه. وقد قال ﷺ: «مَن رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

فالذي يجالس أهل الزور، ويشاهد مجالسهم، يفقد غيرته على الدين، ويألف المنكر، حتى يجره ذلك إلى أن يشارك أهله فعله، فإن جلس في مجلس ميْسرٍ قامرَ، وإن جلس في مجلس تدار فيه الخمر شرب،

---

(١) مسلم (٤٩/٦٩/١)، الترمذي (٢٢٦٣/٣١٧/٣)، ابو داود (١١٢٨/٤٩١/٣)، ابن ماجه (٤٠١٣/١٣٣٠/٢)، النسائي (١١١/٨).

وإن كان غير ذلك، شاركهم فيه قولاً كان أو عملاً، فكان شريكهم في الإثم بعد أن شاركهم في الفعل.

ومن هنا نهانا الله عن شهود هذه المجالس، وبين أن جليس القوم شريكهم وإن لم يشاركهم فقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[1]. وقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

وقال الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر»[3]. ولذلك يروى أن الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه جيء بقوم قد شربوا الخمر فقال: اجلدوهم. قالوا: إن فيهم فلاناً كان صائماً. أي لم يشرب ـ فقال: به فابدءوا».

إن الرجل حين يألف مجالس الباطل يكره ولا بد مجالس الحق، فإنه لا يجتمع في قلب واحد حب الصالحين وحب غيرهم، فإما أن يكون الرجل صالحاً يحب الصالحين ومجالسهم، وإما أن يكون رجل سوء يحب أهل الباطل ومجالسهم، ولا بد، وأيما رجل صالح خالط غير الصالحين وألف مجالسهم وتردد عليهم، فلا بد يوماً أن ينجرف معهم، وأن يسير سيرهم، وأن ينسى مجالسه الأولى مجالس الصالحين، التي كان يؤمر فيها بالمعروف وينهى فيها عن المنكر. ولذا قال النبي ﷺ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[4].

ويقول علماء النفس والاجتماع: إن الطبع يسرق من الطبع، ولذا قال القائل:

---

(١) النساء ١٤٠.
(٢) الأنعام ٦٨.
(٣) الترمذي (٢٩٥٣/١٩٩/٤).
(٤) أبو داود (٤٨١٢/١٧٩/١٣)، الترمذي (٢٤٨٤/١٧/٤).

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

إذا شئت أن تتعرف على واحد من الناس فاعرف أصحابه تعرفه، فكل قرين بالمقارن يقتدى. فعلى المسلم أن يجتنب مجالس الزور، وأن يبتعد عنها كل البعد، وأن ينكر على أهلها ما استطاع إلى الإنكار سبيلاً.

معشر المسلمين: وإذا كان عباد الرحمن لا يشهدون الزور، أي لا يحضرون مجالسه بغضاً فيه وكراهية له، فإنهم من باب أولى يجتنبون قول الزور والنطق به، ذلك لأنهم آمنوا أنهم مسئولون عن كل كلمة ينطقونها، وآمنوا أن كل لفظ يخرج منهم مسجل عليهم، إنهم آمنوا بقول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ. إذ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَن اليَمِين وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَّا يَلفِظُ مِن قَولٍ إِلاَّ لَدَيهِ رَقِيب عَتِيدٌ** ﴾[1]. إنهم آمنوا بقول الله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيكُم لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ. يَعلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾[2]. وآمنوا بقوله: ﴿ **وَكُلُّ شَيءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُر. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَر** ﴾[3]. وآمنوا بقوله: ﴿ **أَمْ أَبرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُون. أَمْ يَحسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيهِم يَكتُبُونَ** ﴾[4]. إنهم آمنوا بأن الله سميع بصير، يسمع ما يصدر عنهم من قول، ويرى ما يكون منهم من فعل، فاجتنبوا مجالس الزور حتى لا يراهم فيها، وقد نهاهم عنها، واجتنبوا قول الزور حتى لا يسمعه منهم وقد حرمه عليهم.

إخوة الإسلام: إن شهادة الزور عقوبتها عظيمة جداً، ولعظم حرمتها قرنت بالشرك في قوله تعالى: ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ** ﴾[5]. وفي قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغيَ بِغَيرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعلَمُون** ﴾[6]. وشهادة الزور قول على الله بغير

---

(١) ق ١٦ - ١٨.
(٢) الانفطار ١٠ - ١٢.
(٣) القمر ٥٢، ٥٣.
(٤) الزخرف ٧٩، ٨٠.
(٥) الحج ٣٠.
(٦) الأعراف ٣٣.

علم. وقد عدّها رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر، فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» (ثلاثاً). قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». وجلس وكان متكئاً، ثم قال: «ألا وقول الزور. فما زال يكررها حتى قالوا: ليته سكت»[1].

إن شاهد الزور من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وهو بشهادته يرتكب محظورات: منها: الكذب، والله يقول: ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾[2]. والكذب يحرم الكذّاب من هداية الله، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** ﴾[3].

ومنها: الظلم، فشاهد الزور يظلم كلاً ممن شهد له وشهد عليه، أما ظلمه لمن شهد عليه فواضح، لأنه بشهادته استبيح مال هذا المظلوم أو عرضه أو دمه، وأما ظلمه لمن شهد له فلأنه بشهادته يجعله يأكل مالاً حراماً، أو يستحل فرجاً حراماً، أو يستبيح دماً حراماً.

فالواجب على كل مسلم أن يتقي الله، وأن لا يشهد إلا بعد علم، كما قال ربنا: ﴿ **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[4]. وكما قال: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا** ﴾[5].

وعلى المسلم إذا تحمّل شهادة وتعينت عليه أن لا يكتمها إذا طلب منه أداؤها، فإن كتمان الشهادة يعدل شهادة الزور، فكما أن شهادة الزور تقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، وتجعل الظالم مظلوماً، والمظلوم ظالماً، فكذلك من تحمّل شهادة ثم لم يؤدها فقد ضيع حقوق عباد الله، ومن هنا قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ** ﴾[6].

وعلى الشاهد إذا شهد أن يشهد بالحق، ولو كانت الشهادة على نفسه

---

(١) البخاري (٢٦٥٤/٢٦١/٥)، مسلم (٨٧/٩١/١)، الترمذي (٢٤٠١/٣٧٥/٣).
(٢) النحل ١٠٥.
(٣) غافر ٢٨.
(٤) الزخرف ٨٦.
(٥) الإسراء ٣٦.
(٦) البقرة ٢٨٣.

أو على أحب الناس إليه قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَو الوَالِدَينِ وَالأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُن غَنِيًّا أَو فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَو تُعرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (١).

معشر المسلمين: إن عباد الرحمن قوم لا يشهدون الزور، أي لا يحضرون مجالسه، لا يقصدون إليها ولا يتحرون المرور بها، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ (٢) فهم لا يعمدون إلى هذه المجالس، وإذا قُدِّر ومروا بها من غير قصد أسرعوا الخطا، حتى لا تتلوث أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بهذا اللغو، فإن السمع والبصر لهما تأثير في الفؤاد، كل ما تسمعه يؤثر في قلبك، وكل ما تراه يؤثر في قلبك، ولذا نهينا عن الجلوس في مجالس اللغو حتى لا نسمعه فيؤثر في قلوبنا ونهينا عن النظر إلى النساء ، لأن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس:

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر

كما نهينا عن النظر إلى زينة الدنيا وزخارفها، لأنه يخشى على من يديم النظر إلى ذلك أن يتعلق قلبه به، ويحب الدنيا، وقد قيل: حب الدنيا رأس كل خطيئة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُم، زَهرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٣). وقال: ﴿ وَلَولَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيهَا يَظهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِم أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤).

فعلى المسلم أن يجتنب مجالس الزور، وإذا قدّر ومرّ عليها من غير قصد فليسرع الخطا، وليجعل أصابعه في أذنيه، كما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه مر على راع معه مزمار، فجعل أصبعيه في أذنيه، وأسرع الخطا، فما زال هكذا حتى قال له مولاه: لقد انقطع الصوت.

---

(١) النساء ١٣٥ . (٣) طه ١٣١ .
(٢) الفرقان ٧٢ . (٤) الزخرف ٣٣ - ٣٥ .

الصفة الثامنة: تلقى الوحي بالسمع والطاعة(★)

من المعلوم الثابت أن جيل الصحابة رضوان الله عليهم كان جيلاً فريداً لم يشهد التاريخ مثله. لقد كان جيل الصحابة خير جيل تخرج من مدرسة الدعوة الإسلامية.

ولقد مدح الله ورسوله أصحاب محمد، وشهد الله ورسوله لأصحاب محمد بالخيرية: قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللّهِ ﴾[1]. وهذا الخطاب وإن كان خطاباً عاماً للأمة كلها، إلا أن أصحاب محمد هم أولى الناس به، فإنه لم يبلغ مبلغ إيمانهم أحد، ولم يقم في مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقامهم أحد. ثم إنهم أول من خوطب بهذا الخطاب، وأول من سمعه من رسول الله ﷺ، فلئن كانت الأمة المحمدية هي خير الأمم، فإن خير هذه الأمة هم أصحاب محمد ﷺ ولقد مدحهم الله صراحة في القرآن الكريم، فقال:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجرِي تَحتَها الأَنهَارُ

(★) لقد أفردت هذه الصفة برسالة بعنوان «كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يتلقون الوحيَ عن الله» وقد طبعت

(١) آل عمران ١١٠.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾[1]. وقال: ﴿لِلفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أخرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِم يَبتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. وَالَّذِينَ تَبوءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيهِم وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِم وَلَو كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»[3]. وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[4]. والأحاديث في فضائل أصحاب رسول الله كثيرة لا تحصى.

معشر المسلمين: لقد كان جيل الصحابة جيلاً فريداً انقضى ثم لم يتكرر في التاريخ مثله، وإذا بحثنا عن السبب وجدنا أن الأمة لم تفقد شيئاً مما توفر للصحابة إلا شخص المربي العظيم محمد ﷺ، فالقرآن هو القرآن، **والسنّة هي السنّة، وما غاب عن المدرسة إلا شخص رسول الله ﷺ، وفقدان شخصه ﷺ لا يؤثر في سير الدعوة فإن هذا الدين دين الله، وإن هذه الدعوة دعوة إلى الله، والله سبحانه قد تكفل بحفظ هذا** الدين، ونشر هذه الدعوة وإن لم يقم بها رجال، فالدعوة نفسها لها من الصلاحية، وفيها من الوضوح، وفيها من القوة ما يجذب إليها أنظار المشركين، وإن قعد المسلمون عن التحرك بالدعوة. وها نحن نرى ونسمع، ونقرأ في الصحف والمجلات أن نفراً كثيراً من المشركين يعلنون

---

(1) التوبة ١٠٠.

(2) الحشر ٨، ٩.

(3) البخاري (٥/٢٥٩/٢٦٥٢)، مسلم (٤/١٩٦٢/٢٥٣٣)، الترمذي (٣٩٥٠/ ٣٥٧/ ٥).

(4) البخاري (٧/٢١/٣٦٧٣)، مسلم (٤/١٩٦٧/٢٥٤١)، أبو داود (١٢/٤١٣/٤٦٣٣)، الترمذي (٥/٣٥٧/٣٩٥٢).

إسلامهم كل يوم، لا لنتيجة جهود بذلت، وإنما لنتيجة جهود شخصية، قرؤوا عن الإسلام، وتدبروا كتابه، فعلموا أنه هو الدين الحق، فأعلنوا إسلامهم.

إذن فالدعوة لا ترتبط بأشخاص، حتى ولو كان رسول الله، ولو كانت الدعوة تحتاج في سيرها وانتشارها إلى شخص رسول الله لكتب الله لرسوله الخلود في الدنيا إلى قيام الساعة، ولكن الله قال له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[1]. وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2]. لقد مات رسول الله كما يموت الناس، وتوفّى الله رسولَه كما يتوفى الناسَ، لعلمه أن الدعوة غير مرتبطة بشخصه ﷺ.

وإذ الأمر كذلك فما السبب إذن في أن المدرسة المحمدية لم تخرج جيلاً كجيل الصحابة؟

السبب هو أننا نختلف مع الصحابة في نقطتين هامتين:

الأولى: مصدر التلقي.

والثانية: منهج التلقي.

أما مصدر التلقي: فإن أصحاب محمد ﷺ لم يكن لهم سوى نبع واحد يستقون منه، لم يكن لهم سوى مصدر واحد يصدرون عنه، وذلك هو القرآن وهدْي رسول الله ﷺ، ولم يكن ذلك نتيجة فقر في الحضارات والثقافات، فقد كانت الحضارات والثقافات موجودة، كانت هناك الحضارة الرومانية، والفارسية، والإغريقية، وغيرها، ولكن رسول الله ﷺ قَصَرَ أصحابه على ذلك النبع الصافي، الذي يصدر عنه كل خير، وظل ﷺ يراقب أصحابه حتى لا تكون منهم التفاتة ولو يسيرة إلى غير القرآن، وذات يوم يرى صحيفة من التوراة في يد عمر بن الخطاب، فيغضب ويقول: «أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب كما تهوكت اليهود والنصارى، والله لقد جئتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما وسعه إلا أن

(١) الزمر ٣٠. (٢) الأنبياء ٣٤، ٣٥.

يتبعني»(١). ومعنى: أمتهوكون: أي أمتحيرون أنتم وشاكون في دينكم كما تحيرت اليهود والنصارى.

وهكذا قصر رسول الله أصحابه على أصحاب هذا النبع الصافي، فاستقوا منه علومهم وثقافتهم التي كانت سبب عزهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

أما نحن الخلف، فقد نبذنا كتاب ربنا وسنة نبينا وراء ظهورنا، ويمَّمْنا وجوهنا شطر المشرق والمغرب، ننشد منهم الحضارات والثقافات والمعلومات، وما هم بنافعينا بشيء من ذلك، لأنهم كما قال ابن مسعود رضي الله عنه «لن يهدوكم وقد ضلوا». وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث، تقرءونه محضاً لم يُشَبْ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم(٢).

فإذا أراد المسلمون أن يفيء إليهم مجدهم وعزهم، وإذا أرادوا أن ينشأ فيهم جيل صالح كجيل أصحاب محمد ﷺ، فليتحولوا عن الشرق والغرب، إلى كتاب الله وسنّة رسوله، وليقوموا بعملية تنقية وتصفية لمناهجهم من الشرقيات والغربيات والإسرائيليات، وليعتمدوا على ما إن تمسكوا به لن يضلوا أبداً: كتاب الله وسنة رسوله.

فإذا فعلوا ذلك فقد وضعوا أقدامهم على الخطوة الأولى في طريق العودة إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ.

أما النقطة الثانية: وهي منهج التلقي:

فنحن نختلف مع أصحاب محمد ﷺ في منهج التلقي، كما نختلف

(١) أحمد (١/١٧٥/٦٢).
(٢) البخاري (١٣/٣٣٣/٧٣٦٣).

معهم في مصدر التلقي، لقد كانوا يتلقون الوحي عن الله بآذان صاغية، وقلوب واعية، كانوا يقبلون على ما يتلى عليهم من الوحيين: الكتاب والسنة، ليعملوا بكل ما يتلى عليهم، كانوا يتلقون ليعملوا، ما كانوا يتلقون ليتفقهوا فقط، ما كانوا يتلقون لتكثر حصيلة معلوماتهم! لا. لا. كانوا يتلقون الوحي عن الله للتنفيذ، كما يتلقى الجندي في الميدان أوامر القائد الأعلى للتنفيذ، وهو يعلم أن عدم التنفيذ معناه الهزيمة والخذلان والخسران.

كان أصحاب محمد يتلقون الوحي عن الله للعمل لا للتسلية ولا للذة، كانوا يتلقون لينفذوا مهما كان الذي يتلى عليهم، كانوا يعلمون أنه ليس لهم الخيرة من أمرهم إذا قضى الله ورسوله أمراً، **﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**(١).

هكذا كانوا يتلقون. أما نحن فكم من آيات تتلى علينا، تقرع آذاننا أوامرها ولا نأتمر، وكم من آيات تقرع آذاننا نواهيها ولا ننتهي، ولسان الحال يقول: سمعنا وعصينا، كما قال أهل الكتاب من قبلنا. ولا سعادة لنا، ولا فلاح ولا نجاح إلا في أن نبادر إلى تنفيذ كل ما يتلى علينا من كتاب ربنا وسنة نبينا.

فإن نحن فعلنا ذلك فقد صرنا مؤهلين لنصر الله، يمدنا به كما أمد به الجيل الأول:

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾(٢).

هذا هو تفسير الصفة الثامنة من صفات أئمة المتقين عباد الرحمن، التي وصفهم الله بها في قوله:

---

(١) النور ٥١. (٢) الروم ٤، ٥، ٦

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾[١]. أي أن من صفات عباد الرحمن أنهم إذا ذكروا تذكروا، وإذا نصحوا انتصحوا، وإذا وعظوا انتفعوا ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾. لا كما هو حال المشركين والنافقين ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾[٢].

يا معشر الإخوة: إن الدروس في هذه الأيام كثيرة، وإن المواعظ كثيرة، وإن الكلام كثير، ولكن ـ للأسف ـ لا نرى استجابة، ولا نرى سمعاً ولا طاعة، ولا نرى تغييراً في الواقع. الكلام يقرع آذاننا، الآيات تقرع آذاننا، الأحاديث تقرع آذاننا، والحال كما هو لا يتغير، بل ربما يزداد سوءاً، والسبب في ذلك كما قلنا أننا نسمع للتسلية وندرس للثقافة، ونقرأ لزيادة الحصيلة العلمية فقط. لا نسمع بنية العمل ولا نقرأ بنية العمل، ولا ندرس العلم للعمل، ولذا ظل الحال على ما هو عليه، ولا يمكن أبداً أن يتغير الحال إلا أن يغير المسلمون ما بقلوبهم، ولا يتم التغيير إلا إذا دِنَّا لله بالسمع والطاعة، نأتمر حين نؤمر، وننتهي حين ننهى، فإذا فعلنا ذلك غيَّر الله حالنا إلى الأحسن. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾[٣].

---

(١) الفرقان ٧٣.
(٢) محمد ١٦.
(٣) الرعد ١١.

الصفة التاسعة: طلب الذرية الصالحة والإمامة في الدين

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(١). إن الزوجة الصالحة والأبناء الصالحين هم قرة عين المؤمن، فليس شيء أحب إلى نفس المؤمن وأحسن في عينه من أن يرى زوجته صالحة وأبناءه صالحين، فصلاح الأزواج والأبناء قرة عين للمؤمن في الدنيا والآخرة، يوم يجمع الله شمل المؤمن بأزواجه وذريته ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾(٢). كما قال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾(٣). وكما في دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُم جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِم وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾(٤).

وإذا علمنا هذا: فمتى تكون الزوجة صالحة والأبناء صالحين؟

تكون الزوجة صالحة إذا أحسن الزوج اختيارها قبل الزواج، فاختارها على أساس من الدين، لا لغير ذلك، كما قال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع:

---

(١) الفرقان ٧٤.
(٢) القمر ٥٤، ٥٥.
(٣) الرعد ٢٣.
(٤) غافر ٨.

لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

ويكون الأبناء صالحين إذا اجتهد الأب على تربيتهم تربية إسلامية، ولا يكون هذا إلا إذا استشعر الأب المسئولية الملقاة على عاتقه نحو أهله وأبنائه.

أيها الأب: اعلم أن عليك مسئولية كبيرة تجاه أهلك وأبنائك، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ، عَلَيهَا مَلاَئِكَة غِلاَظٌ شِدَادٌ، لاَّ يَعصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون** ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله، وهو مسؤول عن رعيته»[3]. وقد بين ربنا سبحانه لعباده المؤمنين أسس التربية الصحيحة وقواعدها، والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد من هذه الأسس التربوية الكثير الكثير.

فمن ذلك قول الله تعالى عن لقمان رضي الله عنه: ﴿ **وَإِذ قَالَ لُقْمَانُ لابنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ** ﴾[4]. ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَردَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرضِ يَأتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُر بِالمَعْرُوفِ وَانهَ عَنِ المُنكَرِ وَاصبِر عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِن عَزمِ الأُمُورِ. وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرضِ مَرحاً، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقصِد فِي مَشيِكَ، وَاغْضُض مِن صَوتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ** ﴾[5]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا**

---

(١) البخاري (٩/١٣٢/٥٠٩٠)، مسلم (٢/١٠٨٦/١٤٦٦)، أبو داود (٦/٤٢/٢٠٣٢)، ابن ماجه (١/٥٩٧/١٨٥٨)، النسائي (٦/٦٨).

(٢) التحريم ٦.

(٣) البخاري (٢/٣٨٠/٨٩٣)، مسلم (٣/١٤٥٩/١٨٢٩).

(٤) لقمان ١٣.

(٥) لقمان ١٦ - ١٩.

جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ، فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ، ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾(٤). وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ... ﴾(٥) الآية.

فهذه الآيات تبين القواعد والأسس التربوية التي يجب على الآباء أن يسيروا عليها في تربية أبنائهم، ذكوراً وإناثاً، وقد سبق شرح هذه القواعد في الدروس السابقة فأغنى عن إعادته هنا.

إخوة الإسلام: إن الولد الصالح امتداد لسيرة أبيه بل ولعمله إلى أن تقوم الساعة كما قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٦). فعلى كل أب

(١) الممتحنة ١٢.
(٢) الأحزاب ٣٣.
(٣) الأحزاب ٥٣.
(٤) الأحزاب ٥٩.
(٥) النور ٣٠، ٣١.
(٦) مسلم (١٦٣١/١٢٥٥/٣)، أبو داود (٢٨٦٣/٨٦/٨)، الترمذي (١٣٩٠/٤١٨/٢)، النسائي (٢٥١/٦).

أن يحرص على تربية أبنائه تربية صالحة ليكونوا قرة عين له في الدنيا والآخرة.

هذا عن الشق الأول من الصفة التاسعة من صفات عباد الرحمن، وهو طلب الذرية الصالحة. أما الشق الثاني: وهو طلب الإمامة في الدين: فإن عباد الرحمن قوم نظروا إلى سلعة الله ـ وهي الجنة ـ فوجدوها غالية الثمن، ونظروا إلى أعمارهم فوجدوها قصيرة، لا تتسع لتحصيل ثمن الجنة، ثم إنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»(١). وسمعوه يقول: «من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»(٢). فسألوا الله عزَّ وجل أن يجعلهم أئمة هدى، ودعاة خير، يقتدى بهم الصالحون في طاعة الله عز وجل، رجاء وصول ثواب من يقتدي بهم إليهم إلى يوم القيامة، ﴿ **يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ مَا عَمِلَت مِن خَيرٍ مُحضَراً وَمَا عَمِلَت مِن سُوءٍ** ﴾(٣). فإذا أردت يا عبد الله أن لا ينقطع ثواب عملك بعد موتك، فاعمل على أن يهتدي الناس على يدك وكن قدوة حسنة يقتدي بك الناس، فإنك إن فعلت ذلك وصلك من الثواب مثل ثواب كل من اقتدى بك في عمل صالح إلى يوم القيامة.

«ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إماماً».

---

(١) مسلم (١٨٩٣/١٥٠٦/٣)، أبو داود (٥١٠٧/٣٧/١٤)، الترمذي (٢٨١٠/١٤٧/٤).

(٢) مسلم (٢٦٧٤/٢٠٦٠/٤)، الترمذي (٢٨١٤/١٤٩/٤)، أبو داود (٤٥٨٥/٣٦٢/١٢)، ابن ماجه (٢٠٦/٧٥).

(٣) آل عمران ٣٠.

جزاء المتقين: دار السلام

كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها طالباً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى منها هارباً، فعلام تفرحون؟ وماذا عساكم تنتظرون؟ الموت، فإنه أول وارد عليكم من الله بخير أو بشر، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً حثيثاً.
﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1]

لما ذكر الله تعالى صفات عباد الرحمن ذكر جزاءهم فقال: ﴿**أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً. خَالِدِينَ فِيهَا، حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً**﴾[2]

ولما كان مقصودنا من ذكر صفات المتقين وأئمتهم هو أن نحاول الاتصاف بصفاتهم، فإن مما يشجع على ذلك معرفة جزائهم عند ربهم، بوصف هذه الغرفة التي وعدهم بها ربهم، وهي الجنة.

إنّ الجنّة سماها ربّنا دار السلام، وقدْ دَعَى ربُّنا عزّ وجل عباده جميعاً إلى هذه الدار، وبلَغتْهم الدعوة على ألسنة المرسلين، فمن أجاب المرسلين فقد أجاب الدعوة ودخل الجنة دار السلام، ومن لم يجب

(١) آل عمران ١٣٣.　(٢) الفرقان ٧٥، ٧٦.

المرسلين فقد رفض الدعوة، وأنى لمن رفض الدعوة أن يدخل دار الداعي، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]. ولكل دار أبواب، فكم عدد أبواب الجنة؟:

للجنة ثمانية أبواب، كما صرح بذلك النبي ﷺ حيث قال: «من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[2]. فمن كان من أهل الصدقة نودي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصلاة نودي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد نودي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام نودي من باب الريان. وهناك رجال تنادي عليهم الأبواب كلها ليدخلوا منها، هناك رجال تسابقوا إلى الخيرات، وتنافسوا في الصالحات، فاجتهدوا على فعل كل خير يحبه الله تعالى، هؤلاء تنادي عليهم الأبواب كلها يوم القيامة، كل باب يريد أن يدخل منه ذلك الصالح.

أما عن سعتها: فقد قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾[3]. وقال: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ والأَرْضِ ﴾[4].

أما بناؤها: فهي لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وطينها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وترابها الزعفران.

أما لباسهم فيها: فإنهم يلبسون الحرير والسندس والإستبرق، ويحلّون فيها بالذهب والفضة واللؤلؤ. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجرِي مِن تَحْتِهَا الأَنهَارُ، يُحَلَّونَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ

(١) يونس ٢٥.
(٢) مسلم (٢٣٤/٢٠٩/١).
(٣) آل عمران ١٣٣.
(٤) الحديد ٢١.

مِن ذَهَبٍ ولُؤْلُؤاً ، وَلِباسُهُم فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَهُم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجرِي مِن تَحتِهِمُ الأَنهَارُ، يُحلَّونَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ. . . ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ عَالِيَهُم ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ، وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ (٣).

وأما طعامهم: فقد قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحمِ طَيرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (٤).

وأما شرابهم: فقد قال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيهِم وِلدَانٌ مُّخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأسٍ مِن مَّعِينٍ. لَّا يُصَدَّعونَ عَنهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَبَنٍ لَّم يَتَغَيَّر طَعمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِّن خَمرٍ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ (٦). وقال تعالى: ﴿ وَيُسقَونَ فِيهَا كَأساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً. عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ (٧).

إن الحديث عن دار السلام مهما كان فصيحاً بليغاً فلن يدنو من فصاحة القرآن وبلاغته وهو يصف الجنة، فلْنقتصر على قراءة بعض ما جاء في القرآن من وصفها: في سورة الإنسان يقول ربنا عزَّ وجل ﴿ إِنَّ الأَبرَارَ يَشرَبُونَ مِن كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ سَعيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ (٨).

---

(١) الحج ٢٣.
(٢) الكهف ٣١.
(٣) الإنسان ٢١.
(٤) الواقعة ٢٠، ٢١.
(٥) الواقعة ١٧، ١٩.
(٦) محمد ١٥.
(٧) الإنسان ١٧، ١٨.
(٨) الإنسان ٥ ـ ٢٢.

وفي سورة الواقعة يقول ربنا عزَّ وجل: ﴿ والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ الآيات إلى ﴿ وَثُلَّةٌ مِّن الآخِرِينَ ﴾[1] فالطعام لحم طير وفاكهة مما يتخيرون. والشراب: ماء غير آسن، لبن لم يتغير طعمه، خمر لذة للشاربين، عسل مصفى. واللباس حرير، سندس، استبرق أخضر وأبيض وهم فيها ﴿مُفَتَّحةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ لأنها دار السلام، وفتح الأبواب إشارة إلى الأمن والأمان والطمأنينة، فلا خوف: لا خوف من عدو، ولا خوف من سارق، ولا خوف من غاصب لأنهم في دار السلام، دار الأمن والأمان، والفرح والسرور، ولذلك لما تبوءوا منازلهم فيها قالوا كما حكى ربنا عنهم ﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ، إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُور، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[2]

أما النساء في الجنة فحدث عن جمالهن بما شئت، إنهن حور عين، مقصورات في الخيام، وصفهن ربنا عز وجل فقال: ﴿كَأَنَهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[3]، وقال: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤ المَكْنُونِ﴾[4]، وقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَانُ ﴾[5]. على الواحدة منهن سبعون حلة. الحلة الواحدة تساوي الدنيا وما عليها، لو نظرت امرأة منهن من باب خيمتها لأضاء نور وجهها ما بين السموات والأرض [6]

ولو تفلت في البحر والبحر مالح ... لأصبح ماء البحر من ريقها عذباً

فيا بائعاً هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

من الواجب علينا نحن المسلمين أن نؤمن بأن الجنة والنار مخلوقتان

---

(١) الواقعة ١٠ - ٤٠.
(٢) فاطر ٣٤، ٣٥.
(٣) الصافات ٤٩.
(٤) الواقعة ٢٣.
(٥) الرحمن ٥٨.
(٦) الترمذي (١٦٩٩/١٠٠/٣).

موجودتـان الآن، وما من رجـل إلا وقد علم مكـانه، وعـرف مقعده في الجنـة أو في النار.

الجنة الآن موجودة، وأهلها معروفون، وخـزنة الجنـة: رضوان وأتبـاعه يعـرفون أهـل الجنة بـأسمائهم، والحـور العين في الجنة يعـرفن أزواجهن من أهل الدنيا.

ولـذلك لمـا عـرج بـرسـول الله ﷺ إلى السمـوات العـلا، إلى سـدرة المنتهى، عندها جنـة المأوى دخـل الجنة وتجـول فيها، ورأى فيهـا قصراً من ذهب، فقال: لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجـل من قريش قـال: ومن هو؟ قـالوا لعمر بن الخطاب[١].

وجـاء في الحديث عن النبي ﷺ أنـه قـال: «لا تؤذى امـرأة زوجهـا في الدنيا إلا قـالت زوجته من الحـور العين لا تؤذيه قـاتلك الله، فإنمـا هو عنـدك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا»[٢].

فيا عبد الله، اشتر الآخرة بالدنيا، لا تغرنك الحياة الـدنيا، فـإنها غـرارة خـداعـة، فتـانـة، فـلا تـركن إليهـا ولا تـطمئن لهـا، وليكن همـك الآخـرة، وحرصك على الفردوس الأعلى.

هـذه ﴿جَنَّـاتُ عَـدْنٍ الَّتِي وَعَـدَ الـرَّحمَنُ عِبَـادَهُ بِالغَيبِ، إنَّهُ كَـانَ وَعـدُهُ مَـأتِيّـاً. لا يَسمَعُـونَ فِيهَـا لَغـواً إلاَّ سَـلاَمـاً، وَلَهُمْ رِزقُهُم فِيهَـا بُكرَةً وَعَشِيًّـا﴾[٣]. فهل من مشمـر لها، هـل من راغب فيهـا؟ هـل من دافـع لثمنها؟ إن الجنـة أقرب إلى أحـدكم من شراك نعله، وثمنهـا يسير «من توضأ فأسبغ الـوضوء ثم قـال: أشهد أن لا إلـه إلا الله، وحده لا شـريك لـه،

(١) الترمذي (٥/٢٧٢/٣٧٧١).
(٢) الترمذي (٢/٣٢٠/١١٨٤).
(٣) مريم ٦١، ٦٢.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[1].

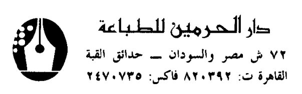
اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

تمّ الكتاب

(1) سبق قريباً.

الفهـرس

الفهرس


دار الحرمين للطباعة
٧٢ ش مصر والسودان ـ حدائق القبة
القاهرة ت: ٨٢٠٣٩٢ فاكس: ٢٤٧٠٧٣٥